

المُجَلِّدُ رَبِيعَةُ

طبعة مدرسية
معرفة.
محنة من أساتذة اللغة العربية

obeikandi.com



الجمهورية العربية السورية
أمانة التعليم والتربية

المُجَلِّدُ

رَبِيعَةُ

محمد فريد أبو حديد

الناشر



دار المعارف - لبنان



دار المعارف

المصدر : دار المعارف - ١١١٩ كوريش النيل - القاهرة ج.م.ع.
ودار المعارف لبنان - بناية الفيل / ساحة رياض الصلح ص.ب ٢٢٢٠ بيروت / لبنان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١

كان اليوم من تلك الأيام المطيرة القليلة التي يجود بها شتاء الصحراء . وقد أسفر^(١) وجه السماء بعد أن جلل المطر أعواد الخزامى^(٢) ، والشيخ^(٣) ، وصفا الجو ورقّ النسيم البارد ، وسطعت أشعة الشمس رفيقة دفيئة تغمر الرمال الصفراء الندية ، وتلمع تحتها الجداول الدقيقة المتعرجة .

وكان وائل التغلبي - وائل بن ربيعة فارس تغلب وسيدها - يسير في جانب الوادي المعشب الذي ضربت فيه خيامه ، ويحول ببصره في التلال الجرداء المحيطة به ، ليس عليها إلا أعواد من الطرفاء^(٤) ، الكالحة ، وأشواك العوسج^(٥) ، تبسم فيه الزهورات الزرقاء ، متوالية كأنها تحجل من ثوبها المقدد^(٦) . وكان في سيره يتجه إلى جدول يترقق ماؤه من تلعة^(٧) شجراء عالية ، وينساب متلاًكاً إلى بطن الوادي ، حتى يغيب في روضة ملتفة الشجر ، يتأوج حولها العشب الأخضر البارض^(٨) مع ربيع الشمال ، وتراقص أعوادها في رفق ، وتلامس كلما هبت عليها نفحة من النسيم الفاتر .

وتبسم البدوي للمنظر الفاتن ، ولكن ابتسامته كانت خافتة لم تنفرج لها العبسة العميقة التي كانت تعقد جبينه الواسع . وتنفّس نفساً عميقاً ملأ به صدره من الهواء الصافي ، ومضى في مسيله نحو الروضة بخطى قصيرة ثابتة . سار كأن في قلبه ثقلاً ينوء به ، وكأن في صدره اضطراباً يصرفه عن أن يهتز لجمال ذلك اليوم البديع .

(١) أسفر : وضع وانكشف .

(٢) الخزامى : عشبة طويلة العيدان ، صغيرة الورق . طيبة الريح .

(٣) الشيخ : نبت من النبات .

(٤) الطرفاء : شجر للترين ، وهي أربعة أصناف . منها الأثل ، الواحدة طرفاء وطوفة .

(٥) العوسج : شجر من شجر الشوك له تمر مدور كأنه العقيق ، واحدته عوسجة .

(٦) المقدد : المقطع .

(٧) تلعة شجراء عالية : الأرض المرتفعة كثيرة الشجر .

(٨) البارض : النبات في أول خروجه من الأرض .

وسار في أثره عبد أسود ، يترقب حركته في خشوع ، وينظر إليه بطرف عينيه في حذر ، ويتلفت نحوه كلما بدرت منه لفظة ، كأنه يخشى أن تفوته إشارة من مولاه ، أوتشرد عن سمعه همسة من همساته . وسار من ورائه كلب يتمسح بأذنيه ، وقد وضع ذيله بين فخذه ، وأطرق برأسه بشم الأرض حيناً ، ثم يرفع عينيه لحظة نحو سيده متردداً ويعود إلى إطراره بشم الأرض في مواطئ قدميه .

ولما اقترت السيد من الروضة ، وقف هنيئة ثم قال ولم ينظر إلى ورائه : « يا غصين ! » فأسرع العبد إليه حتى وقف على خطوة منه وقال : « لييك ! » فقال وائل : « جهزلى طعاماً وشراباً ، واتبعنى إلى هناك ! » وأشار بيديه نحو قلب الروضة ، وسار بغير أن ينظر نحو العبد . فحنى هذا رأسه ، ثم سار مسرعاً نحو البيوت المنتشرة في أعلى الوادى حول القبة الحمراء العالية ، المشرفة على الحى .

كان وائل يبدو لمن ينظر إليه شاباً يتألق على وجهه الأسمر رونق الشباب ، وهو يسير مرفوع الرأس ، كأن قوامه النحيل عود رمح^(١) سمهري ، وينظر بعينين لامعتين تصان بهير في قسوة ، وقد انعقد ما بينهما في عبة ، كأن جيئه الواسع لم ينفرج يوماً عن بسمة . وكان أنفه الدقيق الأفتى^(٢) ينتهى إلى فم رقيق الشفتين ، وشارب أسود الشعر مفتول الطرفين ، تشد منه شعيرات قائمة في وسطه قد تمازجت فيها خيوط بيضاء ، وأخرى سوداء ، وكانت لحيته الخفيفة تدور حول وجهه ، لا ترى العين أنراً من الشيب في شعرها الأسود الجمعد^(٣) .

وكانت عمامته البيضاء تنتهى من وراء بطرف مسبل يبلغ مجمع كتفيه ، وتبرز من تحته ذؤابتان^(٤) من شعره الأسود تلمعان بما عليهما من دهن وعطر .

وسار وائل بخطاه البيضاء نحو الروضة الخضراء ، والكلب يسير من خلفه ، يتمسح في أذنيه .

ولما بلغ السيد مدخل الروضة وقف هنيئة ينظر فيما حوله ، كأنه يفحص ما على الرمال من آثار ، ثم أشار إلى الكلب بطرف سيفه المتدلى من حائله وصاح به : « ههنا يا عساف ؟ »

(١) الرمح السمهرى : الصلب المعتدل ، وهو منسوب إلى « سمهر » الرجل الذى كان يقوم الرماح .

(٢) الأفتى : فم الأنف ارتفع وسط قصبة وضاق منخراه .

(٣) الجمعد : المتجمع القصير المتدنى .

(٤) ذؤابتان : خصلتان من شعر مقدم الرأس .

ففهم الكلب الإشارة وأقعى^(١) حيث أشار إليه سيده ، وعوى عواء خفيفاً .

ودخل الرجل الروضة ، فجعل يمشى في مساربها ، ينظر ما بها من آثار ، ويميل إلى كل زهرة يراها فيتأملها ملياً ، ثم يمضى عنها متباطئاً ، ويمد يده إلى الأغصان المتدلية عابثاً بأوراقها حيناً ، ونازعاً بعض أعوادها حيناً ، ثم أوغل في الروضة حتى بلغ مكاناً قد ظلته أشجار ملتفة ، فحتمته من بلل المطر ، وسقطت عليه الأوراق فكسته فراشاً وثيراً فهددها بقوسه ، ثم ألقى القوس إلى جانب ، وألقى كنانته^(٢) إلى جانب ، ونشر شملة^(٣) كانت عليه فجعلها فوق الأوراق الجافة ، ومال فاضطجع عليها فوق ظهره ، متكئاً برأسه فوق كفه ، وجعل يتأمل السماء من خلال الغصون المتدلية ، ويتلقى شعاع الشمس المائل داخلاً إليه من بين الجذوع والقرع .

اعتاد وائل ، كلما نزل القطر وغسل الغبار عن أغصان الروضة وسالت به جداول الوادى ، أن يذهب إليها ليمتع بيوم في ظلها . وكانت بهجة الحياة تتحرك فيه عند ذلك فيلتبس نداه^(٤) . ويقضى معهم يومه يطاردون متع اللهو ، يرى في كل زهرة ثغراً باسمياً ، وفي كل غصن رطيب قواماً مائساً^(٥) ، ويأنس للأحاديث ، ويضطرب للغناء ، ويعود بعد اليوم القصير طروباً مملئاً القلب بالبشر . ولكنه لما خرج في ذلك اليوم كان على غير عهده بنفسه . خرج إلى روضته وحيداً يحس في قلبه حزناً كامناً لا يتبين مبعثه ، وخيل إليه أن العالم يفيض حوله بنبضات حزينة تطن في أذنيه ، وأن السماء الصافية تحق وراء أنوارها الشفافة أسراراً غامضة ، وأن الصحراء التي تمتد تحت ناظريه إلى الأفق المستدير ، ليست كما عهددها فضاء فسيحاً يسرح فيه بصره مطمئناً ، بل كانت تزدهم وتضطرب حتى تكاد لا تدع له فيها خلوة ، وأن النسيم البليل الذي يملأ صدره منه يزيد نفسه القلقة ضراماً واختلاجاً .

خرج في ذلك اليوم وحده إلى روضته التي طالما شهدت مجالس أنسه وطره ، وكان يطمع لو استطاع أن يجد في جمالها الساذج ذلك السلام الذي أعجزه في نوادي قومه ، أو في

(١) أقعى الكلب : جلس على امته ، مفترشاً رجليه وناصباً يديه .

(٢) كنانة السهام : جعبة من جلد أو من خشب تحمل فيها السهام .

(٣) الشملة : كساء من صوف أو شعر يتلفف به ويتغطى .

(٤) نداه : حلاسه . ورفاهه .

(٥) مائساً : حسناً متبخراً مختلاً .

فناء منزله الفسيح ، في الوادى الأعشب . ولكنه عندما اضطجع فى ظلال الروضة وجدها أعلى ضجة من المجامع المزدحمة المضطربة .

لقد كانت نوادى قومه منذ حين تضيق بنفسه وتملؤها ضجراً ، وكان فناء منزله يعث فى قلبه وحشة وكآبة ؛ ولكن تلك الروضة نفسها قد خيبت أمنيته فلم يجد فيها إلا وحشة وكآبة . وتواردت عليه ، وهو مضطجع تحت ظلال الغصون المتدلّية ، صور من حياته مرت فى خياله سراعاً . فتذكر حروبه ومواقعه عند أراط^(١) والكُلاب^(٢) ، ثم موقعته الكبرى عند جبل خزازى حيث تهاوى بفرسانه ليلاً نحو النيران الموقدة على رؤوس الجبال ، وأحاطوا بأهل اليمن فحطموهم حتى لم تقم لهم بعد قائمة ، فانتصف منهم قومه ربيعة وألقوا نير^(٣) اليمن عن رقابهم وتبؤوا مقاعد السيادة فى هضاب نجد . إنه هو الذى اجتمعت حوله الكلمة ، فقاد عرب الشمال جميعاً من ربيعة ومضر حتى انتهى بهم إلى النصر البارغ ، وطرد السادة من ملوك اليمن من تلك الربوع التى رتعا بها من قبله أجيالاً . ولكن قبائل ربيعة قد تغيرت عليه وحدثت فضله ونسيت بطولته ، فهى تحدث فى نوادياها عن كبريائه وظلمه ، وصار الشبان منهم يتحدثونه وينكرون عليه ما سمحت به نفوس آبائهم طائفة عقب ذلك الانتصار ؟ أينكر قومه سابق فضله وينازعونه فى الحق الذى بايعوه^(٤) من قبل عليه ؟ أيحبسون السيف الذى قضى به على قبائل اليمن قد صدئ فى غمده من طول ما مر عليه من السلام ؟ بل إنه لهو العقوق الذى يدفعهم إلى هذه الممسات الحانقة التى تبلغ أذنيه ، مهما بالغ الهامسون أن تكون فيما بينهم سراً ، وإنما هو الحق قد يملأ صدور منافسيه ، ويحملهم على تناسى فضله والتجهّم^(٥) له .

وتنبه واثل من خواطره على صوت رفرقة بين الأغصان التى فوقه ، فحرك رأسه فائراً وأحس بشيء من الارتياح إلى أن يخلص ، ولو حيناً من شجونه المضطربة ، فرأى بين الأوراق قبرة تنتقل بين الفروع فى حذر كأنها تريد أن تهبط . وكان يلوح عليها أنها تخشى ذلك الدخيل المضطجع تحتها . فجعل يتأملها حيناً ثم رأى اضطرابها فرق لها وقام من مكانه متسللاً يحاذر

(١) أراط : اسم موضع .

(٢) الكلاب : اسم موضع .

(٣) النير : الخشبة المعترضة فوق عنق الثور لجر المهرات أو نحوه (المقصود هنا العبودية) .

(٤) بايعوه : عاهدوه .

(٥) التجهّم : الاستقبال بوجه كره .

أن يعتف في حركته حتى لا يفزعها ، ونظر نحوها يرقب حركتها فرآها تنظر إليه في ذعر واضطراب ،
 ثم أن تطير هاربة فتقفز عن غصنها ، ثم تردد فتزل على غصن آخر وتصرصر وتنطق في خشوع
 كأنها تتوسل وتبدي الحنين .

وفيما هو في ذلك سمع صوت ورفقة ضعيفة عند قدميه .

وتلفت حوله إلى أطراف الأغصان المتدلّية ، فرأى عش القبرة وفيه فرخان صغيران
 لا يغطى جسميهما إلا الزغب الأخضر ، وهما يتطلعان نحو أمهما ويحركان جناحيهما العاريين
 في لهفة إلى ظل جناحيها . فأسرع في خفة فرفع قوسه وكنانة سهامه ، ثم وضع شملته على كتفه
 وتراجع في هدوء حتى خرج من ظل الخميلة^(١) ، وهبطت القبرة تهوى مندفعة نحو فرخيها
 وتدرج إليهما في العش ترفرف عليهما بجناحيها وهي لا تزال تنظر في قلق إلى الخيال القائم
 من وراء الأغصان ، فتبسم واثل ابتسامة حزينة ، ثم سار إلى خميلة أخرى من الروضة
 يلتمس في ظلها مضجعاً . وقال وهو سائر كأنه يحدث نفسه : « لقد تحرمت المسكينة
 في حماي » .

ولكنه ما كاد ينطق بهذه الكلمات حتى خفق قلبه وعادته خواطر أخرى أشد حنقاً^(٢)
 إذ تذكر ما يتحدث به قومه ، إذ بلغوا من الجرأة عليه أن أطلقوا ألسنتهم فيه بما لم يكونوا من
 قبل يجرون عليه . إنهم صاروا يتحدثون عنه أنه يحمي الوحش والطير مبالغته منه في الكبر
 والعنوة^(٣) . ويتحدثون عن تلك المراعى التي لا يستطيعون أن يلتمسوا فيها صيداً من ظبي أو أرنب
 أو ضب لأنه قد حمى تلك المراعى وسدها في وجوههم . ويتحدثون عن الماء الذي لا يستطيعون
 أن يردوه^(٤) إلا بعد أن تصلر^(٥) عنه إبله ، وعن كلاً الأرض الذي لا يقدرّون على أن
 يطلقوا فيه إبلهم ، لأنه قد حمى ذلك كله وحازه لنفسه لا يبيع لأحد فيه شيئاً إلا بإذنه .
 لقد تحدث قومه بهذا كله ، ووصفوه بالطغيان والكبر والبطر^(٦) . وكأنهم تناسوا أن ذلك

(١) الخميلة : الشجر المجتع الكبير الملتف .

(٢) الحنق : الغيظ الشديد .

(٣) عتأوا : استكبر وجاوز الحد .

(٤) أن يردوه : أن يحضروا إليه .

(٥) تصلر : ترجع .

(٦) البطر : الاستخفاف بالنعمة والكفر بها .

كله كان من حقه عليهم إذ قد ارتضوه وتطوعوا به له إقراراً بفضلهم واعترافاً له بسلطانه فيهم .

وفيما كان يناجى نفسه بهذه الذكريات سمع صوت كلبه ينبح : فوقف ينظر نحو مدخل الروضة ليرى من يكون ذلك الجريء الذى اقترب من حماه وقال فى نفسه : لعل هذه آية جديدة تطلعه على ما داخل قومه منذ حين من الجراءة عليه . لقد طالما جاء إلى هذه الروضة وأمر كلبه أن يقعى عند مدخلها ، فإكان أحد يجرؤ على أن يقترب منها ؛ فكان ذلك الكلب إذا جلس عند أسفل التلعة^(١) نظر إليه الناس من بعيد وتيامنوا عنه أو تياسروا حتى لا يستطيعوا حمى سيد ربيعة المخيف وائل بن ربيعة . بل لقد كانوا يجعلون اسم ذلك الكلب علماً يذكرونه فيما بينهم إذا أرادوا التحدث عن بطلهم الباسل^(٢) الذى ملأت هيئته القلوب حتى لا يمر اسمه على ألسنتهم إكباراً له وتقديساً .

أوقد تجرأت ربيعة حتى لم يبق فى نفوسها رهبة من الكلب ؟

فأنجحه نحو مدخل الروضة هابطاً على جانب الربوة^(٣) مسرعاً والغضب يملأ قلبه ، لا ترى عيناه إلا حمرة الدماء . وقد عزم على أنه لن يصبر بعد ذلك . بل ليجعلن سطرته طاحنة حتى يصرف قومه عن تلك الهمسات التى يهمس بها الحامدون فيما بينهم إذا خلا بعضهم إلى بعض . لقد جاءت إليه الأنباء يسعى بها صحبه الأوفياء وآله الأقربون ؛ فهو لا يحفل ما تغلى به الصدور عليه ، وإن كانت الخشية من بطشه لا تزال تحقق النيران تحت ستارواه من الرياء والبسمات الزائفة . وكان قلبه وهو يسير نحو مدخل الروضة يغلى حنقاً ويحدثه صائحاً أنه لا بد له أن يفتك وأن يسطو حتى يعلم هؤلاء أنه ما زال السيد الذى طالما انعقدت ألسنتهم عن ذكر اسمه ، وأنه ما زال البطل الذى لا يجرؤ واحد على أن يملأ منه عينيه .

ولما بلغ مدخل الروضة تلفت حوله فلم يجد أحداً ، ولما رآه الكلب أقبل نحوه يعوى مثلاً وهو يتلوى حتى اقترب منه وجعل يتمسح به ويصبص^(٤) بذنبه . ثم ذهب عنه ينبح فى حق متجهاً إلى جانب الربوة . فسار وائل فى إثره حتى بلغ قمة الربوة فأشرف على الوادى المجاور ،

(١) التلعة : ما اتسع من فم الوادى .

(٢) الباسل : بئس يبئس بسالة وبسالة ، شجع وعيس عند الحرب فهو باسل .

(٣) الربوة : ما ارتفع من الأرض .

(٤) بصبص الكلب : حرك ذنبه طمعاً أو ملقاً .

فإذا به يسيل بأعناق الإبل الحمراء ، ومن ورائها فارس يعرفه - هو جساس بن مرة بلا شك - جساس أخو امرأته جليلة بنت مرة سيد بنى بكر . هو أخو تلك الزوجة الحبيبة التي اصطفاها ونعم بالحياة في بيتها الهادئ . أخوها جساس فارس بنى بكر البامل الذي يسير مثل الريح الرديني بأنف أشم^(١) . ذلك الفارس كان لا يرى في قبائل ربيعة من يليق أن يكون عليه سيداً .

ليته لم يكن أخواً لزوجته ، وليته لم يكن ابناً للشيخ مرة بن ذهل بن شيان . فإنه لو لم يكن في حمى تلك القرابة لعرف وائل كيف يكسر ذلك الأنف الأشم ، وكيف يخنى تلك الهامة^(٢) المرفوعة ، وكيف يجعله بغضى تلك العين الجريرة التي يحملق بها في وجهه إذا كلمه . إنه لا يقدر على أن يتمتع من الرعى في مراعيه ، ولا يقدر على أن يجعل إبله تنتظر حتى تصدر إبله هو عن الماء لأنه ابن الشيخ مرة ، وأخو زوجته الحبيبة جليلة .

ولكنه شاب حقود كاره . لم يكفه أن يسوق إبله إلى الحمى الذي حماه ، بل يراه بتعمد أن يجتاز بالروضة التي لم يمر واحد من قبل أن يمر بها .

وكان جساس لا يخفى جرأته وتحديه ، فقد طالما جهر في نوادي بكر بكراهة كليب . لقد طالما نطق باسمه ساخراً وطالما جرأ الشبان من قومه على أن يتكلموا فيه ويسخروا منه في غيبته . كان جساس يحرض عليه ويشير النفوس ، وبوشك أن يوقد عليه بين الناس فتنة عمياء . بل لعله هو الذي بدأ هذا السخط الذي تُنقل إليه أخباره من كل جانب ، ولعله هو الذي فتح عقول القوم إلى التذمر مما كانوا من قبل لا يرونه إلا حقاً وعدلاً . ووقف وائل ينظر إلى ذلك الشاب المتحدى ، واثرت في قلبه الحفيظة^(٣) ، وعزم على أن يتنبه وأن يضرب ، وإلا كانت عاقبة أمره وبالاً^(٤) .

وكنتم وائل غيظه ونزل عن الربوة . ولم يعد إلى روضته التي كان قد أزمع أن يقضى فيها اليوم وحده يلتبس نزهة تهدي من قلبه الثائر ، بل عاد إلى بيته يسرع الخطى وقلبه يفرور وأنفاسه تضطرب ، وقد تمثلت أمام عينيه مناظر الصراع المقبل الذي يوشك أن يقع بينه وبين ذلك الفارس الجريء .

(١) أشم : مرتفع أعلاه .

(٢) الهامة : رأس كل شيء وتطلق على الجنة .

(٣) الحفيظة : الغضب .

(٤) الوبال : الشدة والوخامة وسوء العاقبة .

ولا بلغ مضرب خيامه المشرفة من فوق أعلى الوادى ، لم يلتفت إلى من كانوا فى فئانه
الفسيح من عبيد وأتباع ؛ بل سار مسرعاً والكلب يجرى وراءه لاهثاً^(١) .

ولا بلغ خيمته دخل إليها ، وتلفت فى جوانبها ثم نادى فى شىء من العنف « جلييلة ! »
فنهضت امرأته مسرعة وأقبلت نحوه تبسم ، ولكن نظراتها إليه كانت تيمُّ عن دهشة ؛
فقد كانت تعد له زق^(٢) الخمر وتبني له شواء من الكبد والسنام لكي ترسله إليه مع العبد
« الغصين » فى الروضة كما أمره منذ حين قصير . ولم تكن تتوقع عودته قبل أن يمضى النهار
أو أكثره ، فقد عودها إذا ذهب إلى الروضة أن يقيم فيها حتى تنحدر الشمس إلى الغرب وتطول
الظلال . وأحس قلبها أن فى رجوعه إليها بعد ذلك الحين القصير دليلاً على أمر خطير أزعجه
لم يكن فى حساباته . ونظرت إلى وجهه فأدركت أنه قد عاد إليها غاضباً ثائراً ، فقد كانت
عيناه محمرتين تقدحان شرراً ، وخيل إليها أن الشعرات القائمة فى وسط شاربه تهتز فى قلق .
وأرادت أن تزبل ما عنده من الشجن^(٣) الثائر ، حتى لا تبدر منه بادرة^(٤) قاسية ؛
فإن وائلا إذا ثار لم يملك بواده الدموية . كان لا يعبأ أن يقربطن فرس عزيز ، أو يطيح بسيفه
رأس بعض عبيده المساكين الأبرياء ؛ حتى إذا ما سكن غضبه ، وعاد إلى نفسه ، استولى
عليه الحزن ، وكاد ييخغ نفسه^(٥) أسفاً . ولم يكن أكبر ما يحملها على أن تذهب ما فى نفسه
أنها كانت تحرص على فرس أو تشفق على عبد مسكين ، بل كان الذى يعينها هو هذا الهم
الذى رأت عليه بواده منذ حين ؛ فقد أحست تغيراً عظيماً اعتراه فى تلك الأيام الأخيرة ،
وكان قلبها يُعصر عصرًا قاسياً كلما رآته يقضى اليوم والليلة كاسفاً^(٦) متململاً لا يكاد يدوق نوماً
ولا راحة . وتقدمت نحوه ووضعت يديها على كتفيه فى وداعة وقالت فى صوتها الرخيم^(٧) :

— مرحباً بك لقد كنت أعد لك طعامك .

فنظر وائل إلى وجهها نظرة سريعة ، ثم بدت على وجهه ابتسامة ضئيلة لم تقاومها الثورة

(١) لث الكلب : أخرج لسانه من حر أو عطش .

(٢) الزق : وجاء من جلد يجر شعره ولا ينتف .

(٣) الشجن : الهم والحزن .

(٤) البادرة : ما ييل من الرجل عند غضبه من خطأ أو سقط . والبادرة أيضاً : الغضب السريعة .

(٥) ييخغ نفسه : يقتلها غيظاً أو غماً .

(٦) كاسفاً : مهموماً قد تغير لونه وهزل من الحزن .

(٧) الرخيم : اللين السهل .

العنيفة التي كانت تموج في صدره ، ثم حول نظراته عنها وأمسك بيديها برفق فأزاحهما عن كتفيه ، ونزع قوسه عن كتفه فكدف بها في حلق إلى ركن من الخيمة ، ثم كدف بكثافة سهامه على الأرض في عنف حتى قعقت ، وذهب إلى نطع^(١) من الجلد في صدر الخيمة فجلس عليه ، واحتبى^(٢) سيفه ونظر إلى الخارج وهو ساهم صامت . فقتربت جليلة منه وجلست إلى جانبه ، وجعلت تعبث بيدها حيناً في شملته ، ثم قالت بصوت خافت :
- أراك مهموماً .

فانفجروا ثل ، ولم يطق حبس غيظه وقال :

- لقد طال صبري ، لم يبق بعد في القوس مترع . قاومت نفسي ، وكبحت جماحها من أجلك ، من أجلك أنت يا جليلة . ولكن ها هو ذا يتأدى ولا يزيد إلا جرأة على . فأتارت جليلة صامته ، ووقع في قلبها من يكون ذلك الجريء الذي يقصده زوجها . فلم يكن في قبائل ربيعة كلها من يجروء عليه إلا أخوها جمساس بن مرة الذي لا يعرف لنفسه سيداً . فأتارت حزينة وقلبها يغوص إلى أعماق صدرها وتواردت عليها الخواطر سراعاً . لقد طالما سمعت بما يقوله أخوها في نادى قومه من التعرض لزوجها الحبيب ، ولطالما غاضبته وأنحت^(٣) عليه بلومها ، ولطالما توملت إليه وهي باكية لكي يتجنب ما يوجب القطيعة بين زوجها وقومها ؛ فإن تلك القطيعة لم تكن لتجر في هونها جساماً أخاها وحده ، بل هي داهية محطمة تحبط وتزع وتزق الشمل كله . فلو كان جمساس يحبى بها على نفسه لما كان ذلك يطن قلبها مثل تلك الطعنة ؛ فإنه قتي عنيف متكبر لم يدع في قلبها رقة عليه . ولكن ثورته كانت جناية عليها وعلى قومها جميعاً ، قوم أبيها وإخوتها من بكر ، وقوم زوجها وبنى عمها جميعاً من تغلب .

وأفاقت جليلة على صوت زوجها يهتدق قائلا :

- إن أخاك جساماً يتحدث عنى حديث الكاره المسهرى ويمجى على هؤلاء الأحداث^(٤) الذين كانوا أطفالاً في أفنية آبائهم يمرحون ويلعبون ، عندما كانت المعارك الدامية تثور من

(١) النطع : البساط من الجلد .

(٢) احتبى سيفه : جلس على ألبيه وضم فخذه وساقه إلى بطنه بلراعيه ماسكاً بطرف سيفه ليستند .

(٣) أنحت عليه بلومها : أقبلت عليه به .

(٤) الأحداث : صفار السن .

حولنا ، إذ نجاهد أقيال^(١) اليمن وملوكها في جبال العالية من تهامة . كنا نبنى لهم المجد لكي يصعروا^(٢) خدودهم للعرب جميعاً ، فإذا بهم اليوم قد أذهلهم البطر والجهل : فحسبوا أنهم أصحاب ذلك المجد الذي ينفع أوداجهم كبيراً . أما وأنصاب^(٣) بكر وتقلب كلها لن لم ينته ذلك الأخرق^(٤) لألحقته بالعبيد ، ولأجعله عبدة لأصحابه الآخرين .

فرفعت جليلة يدها إلى غديرتيه^(٥) ، وجعلت تفتلها بأصابعها ، ثم قالت بصوت هادئ :

— هؤن على نفسك يا ابن العم أمر جساس ! ما هو إلا منك وما أنت إلا منه ، وما أنت وما يسعى به إليك الواشون ؟ قرب واش لا يريد إلا فساداً .

فقال واثل ولا يزال حانقاً :

— لا تعتذرى عنه يا جليلة ، فلقد كنت تعذليته وتلومينه ، ألم تأتني أبناء ما قلت له ؟ فنظرت إليه جليلة في شيء من الفزع . إن الأنباء تبلغه وهي تعلم صدق ما يقول . ولكنها لم تبال ، وأرادت أن تستعين بما تعلم أنه في قلبه من حبها . فقالت كأنها معاتبية :

— ألا يرضيك منه عمك وأبناء عمك ؟ إنك تعرف ما يحملون لك جميعاً من المودة .

فهلا أكرمهم بالتغاضي عن جهل ابن عمك الصغير ؟

فانتفض واثل حتى نزع غدائره من بين أناملها وقال في عنف :

— أتغاضي عن جهله ! ومن لي بتحمل ما يتبع ذلك من جهل من يشاركونه ؟ هل كنت لأسيف أن يجعلني هؤلاء ملهاة لم إذا مالت الخمر برؤوسهم ، وأن يتخذوا اسمي في أسماهم العابثة هدفاً لسخريتهم وعيبتهم ؟ لا وحق مناة ! ما ذلك من شأن واثل . . .

ثم قام خارجاً ، ولم تجد كلمات جليلة إلى قلبه سبيلاً ، فقامت وراءه وهي دامعة العين وسألته بصوت متهدج^(٦) :

(١) الأقيال : الرؤساء .

(٢) صعر خده : أماله عجباً وكبراً .

(٣) النصب : ما كان ينصب ليعبد من دون الله ، والجمع أنصاب .

(٤) الأخرق : الأحمق .

(٥) الغديرة : النقابة المصفورة من الشعر .

(٦) متهدج : متقطع في ارتعاش .

- إلى أين يا بن العم ؟ إنك لم تطعم شيئاً منذ الصباح .

فلم يحبها ، بل سار وهو يرفع رداءه في اضطراب ويلقى الشملة على كتفه في غضب ، ووقفت جليلاً حيناً تنظر في أعقابه والحزن يعصر قلبها عصراً ، حتى بعد واختنى عن عينها ، ثم أسرعت فألقت عليها إزارها ^(١) وخرجت مسرعة نحو منازل أبيها .

ولما صار كليب في القناء الواسع بين خيامه دعا عبده الغصين فجاء نحوه مسرعاً .
فصاح به في غضب :

- الرباب !

فأسرع العبد إلى جانب من الوادى . وسار كليب في خطوات واسعة لا يلوى على شيء . وكلبه يتبعه ويشم آثاره ؛ فلما بلغ آخر ثنية الردى وقف ينتظر العبد حتى أقبل يجرى وفي يمينه لجام فرس تحظر رشيقه في خيلاء ، فوثب كليب على ظهرها وهزم جانبيها فوثبت به لا تكاد تلمس سطح الرمال . وكانت كميناً ^(٢) . غراء محجلة لا يرى الرائي منها إذا انطلقت إلا ساقين مثل ساقى النعامة تمدهما من أمام وإبطلين ^(٣) . كأنهما لظبي تسبح بهما من خلف ، وكأنها بينهما طائر يخترق الهواء .

وكان كليب مع ذلك يهز فرسه في عنف على غير عادته ويصيح بها كأنه قد خرج يطارد عدواً ، كأن الشجون التى تجيش في صدره كانت تلتبس منفذاً في تلك الحركة العنيفة وتلك الصيحة الحانقة . ولما خرج من الوادى عرج متياسراً إلى براح ^(٤) من أرض صلبة قد غطى المدر ^(٥) سطحها ، فكانت الفرس في عدوها تثير حوها نثاراً من الحصى المنطائر ، وكأنها أحست ما في قلب راكبها من الثورة ، فأجابتها بوثبات لا تبالى فيها أين تقع حوافرها . وما كانت إلا هنيهات حتى بلغ وائل هضبة عالية فهدأ من سرعته وترك فرسه تعلق جانبيها على رسلها ، ولكنها وثبت على السفح الصخرى كما يثب الوعل ^(٦)

(١) الإزار : ثوب يحيط بالنصف الأسفل من البدن .

(٢) الكمين من الغيل : ما كان لونه بين الأسود والأحمر .

(٣) الإطل : الغاصرة .

(٤) البراح : المتسع من الأرض لا زرع فيه ولا شجر .

(٥) المدر : الطين اللزج المتماثل .

(٦) الوعل : تيس الجبل وهو جنس من المفز الجبلية .

الأعصم^(١) ، حتى علت ظهر الهضبة الفسيح . وكان العشب الأخضر يغطي سطحها المتموج ، ولا تزال قطرات الماء من أثر الأمطار تلعب تحت ضوء الشمس في ثنايا الأعواد ، وفي ثغور أزهار الأقاحي^(٢) والعرار^(٣) ؛ فلأ كليب صدره من الهواء وأرخى الحبل للفرس ومسح عرفها بكفه فاطمأنت في سيرها ومضت بين التلاع^(٤) والوهاد^(٥) ؛ تملو وتهبط في هودة كأنها تتحرك بما تحسه من إرادة سيدها . وقلب كليب نظره في أرجاء الأفق الواضح ، وكانت السماء الزرقاء صافية بعد أن تحلبت أمطارها كأنها قد غُسلت من أدرانها . ودب السلام رويداً إلى قلبه ، وانفرجت عقدة جبينه ولاحت على وجهه بسملة الارتياح . ولما عادت إليه صورة ما حدث في الصباح لم تعد إليه غضبته ؛ كأن المنظر الوديح قد هدهدها وقطع فحمتها^(٦) وعادت إليه صورة جساس بن مرة أخى زوجه الحبيبة فسأله نفسه : أما آن لجساس أن يدع تلك الوسواس التي توغر صدره ؟ ولكنه لم يكن يحس عند ذلك تلك الكراهية التي ملأته غيظاً منذ ساعة على ذلك الشاب الفارس الجريء ، بل لقد كان في قرارة قلبه يتمثل بسالته فيعجب به ويتمنى مودته . إن مثل جساس من يحصى الظهر عند اللقاء ، ويشقى النفس من دماء الأعداء . وإن مثله من يركن إليهم الملوك في رد غيبتهم ، والذب عن حياضهم وهو أخوجليلة العزيرة ، وما كان أولى به أن يكون إليه حبيباً ومنه قريباً ! فإذا كان قلب جساس قد امتلأ غيرة منه وحقداً عليه ، حتى أطلق فيه لسانه ؛ فإن غيظه قد يُسلّ وغيرته قد تهدأ . إنه لا يحاول إذا لقيه أن يخفى عليه ثورته . ولكن ذلك أخف كيداً وأسلم عاقبة من أولئك الذين يلقونه بالبسمات ، فإذا تولوا عنه سلقوه بالسنّة حداد . لقد تمنى كليب عند ذلك لرعاد جساس إليه صديقاً يؤنسه بمودته ويسند ملكه بشجاعته .

وما زالت هذه الخواطرُ به حتى أزعجت عن كاهله ثقله فتنفس نفساً عميقاً ، وشعر بالأشجان التي تضطرم فيه تتصاعد معها ، ودب إليه ديب من السلام . وصار على رسله يقلب طرفه في الأفق الصافي وفي جوانب الرى الخضراء .

(١) الأعصم : في ذراعيه أو أحدهما يابض واثره أسود أو أحمر .

(٢) الأقاحي : جمع أقحوانة . وهو نبات زهره أصفر أو أبيض .

(٣) العرار : نوع من الزهر طيب الرائحة ينبت أيام الربيع .

(٤) التلاع : ما ارتفع من الأرض ، مفردة تلعة .

(٥) الوهاد : الأرض المنخفضة .

(٦) فحمتها : شدتها .

وفيا هو في ذلك لمعت أمام عينيه لمعة على مرمى سهمين ، فرأى بياضاً يبرق ثم ينساب فإذا هو بطون الظباء وهي تثب في خفة من خميلة فوق طريقه لتقصد إلى أخرى آمنة إلى جانب من الهضبة ، فصرخ صرخة وهمز فرسه وحرك اللجام إلى قصدها فانطلقت الفرس تعدو نحوها ووثب عساف يهدر من حلقه حتى سبقها . وما كادت الظباء تحس المطاردة حتى خرجت تهم على الهضبة الفسيحة تعلو وتهبط بين ناشز^(١) من سطحها ومتطامن^(٢) ، والخوف يقذف بها قذفاً ، وقد مدت رؤوسها حتى بلغت قرونها الطويلة جانبي ظهرها . وعدا الكلب والفرس في آثارها ، وطالت المطاردة في تباين وتياسر حتى بدا شيء من التردد على الظباء ، فتفرقت تحاول أن تجد لها عاصماً . ولكن الهضبة الفسيحة لم يكن بها صخر تتوكل^(٣) في جانبه ، فانطلقت تعدو في فزع حتى أدرك الكلب عساف زوجاً منها كان أثقل الربرب^(٤) وثباً ، فجعل يهر في وجهيهما ويتواثب من حولهما وهما يحاورانه ويحاولان الخلاص منه حتى صار كليب على مرمى السهم من الظليين ، فجذب قوسه وسدد الرمية إلى أقربهما إليه ، وهو يحاذر أن يصيب كلبه الباسل برميته ، فإذا بالكبش ينخر وقد أصاب السهم مفصل كتفه ، ثم سدد رمية أخرى فإذا بالنعجة تنخر على خطوات منه وقد وقع النصل ما بين عينيه . وهمز كليب فرسه همزة فوثبت به حتى كانت عند الرميئين وهما تفحصان الأرض بأظلافهما الدقاق . ونزل عن فرسه في خفة وجرد سيفه فدنف على الظليين ومال عليهما يتأمل أعضاءهما في إعجاب .

ثم رفعهما إلى ظهر الفرس فربطهما في سرجه عن يمين وشمال ، ثم مسح على رأس كلبه وصاح به :

- عشاء طيب يا عساف !

فقبص الكلب بذنبه ونظر إليه كأنه يضاحكه ، ثم وثب الفارس فوق ظهر فرسه فاستوى عليه ومسح بيده على رأسها وعرفها وأرخى لجامها وأخذ يتغنى ببعض شعره .

وقضى كليب في عودته ساعة طويلة يسير على هيئته وهو يقلب نظره في الفضاء ، وقد

(١) ناشز : مرتفع .

(٢) متطامن : منخفض .

(٣) تتوكل : تصعد .

(٤) الربرب : القطيع .

هزته نشوة أنسته كل شجونه الثائرة ، حتى مالت الشمس منحدره نحو الأفق الغربى ولعت
تحتها الأزهار تتألق بين بياض في صفرة ، وحمرة في زرقة ، حتى بلغ جانب الهضبة مما يلي
روضته ، فتزل عن فرسه وأرسلها ، فسارت وحدها متجهة إلى مضارب الخيام وساركليب وحده
نحو الروضة حتى تبعث امرأته إليه الطعام . ورأى في طريقه إلى الروضة إبلَ جساس صادرة
عن الماء ، ورأى جساساً في عُذوة الوادي على فرسه يسير في أعقابها . وكان في يده رمح
قد ركزه في ركابه ، فنظر كليب نحوه نظرة قصيرة فرآه ينظر نحوه ، وخيل إليه وهو على تلك
المسافة البعيدة أن نظرته لم تخل من التحدى . فصرف وجهه عنه ولم يرد أن يفكر في أمره حتى
لا يعكر الصفاء الذى شمله من جولة اليوم .

ودخل الروضة حتى بلغ موضع الخيمة فتزل عن فرسه وسار في حفة يرفع يده أطراف
الفصون المتدلّية باحثاً عن عش القبرة التى رآها في الصباح .
وكان يتغنى بصوت خافت :

قنبرة تدعو بالفر قنبر هانقة بين رياض الحجر
لا ترهبى خوفاً ولا تنفّرى فأنت جارى من صروف الحذر
إلى بلوع يومك المقدر

وما كاد يدير بصره بين الفروع حتى هاله ما رأى : كان العش هناك محطوماً في أذبال
الفصون المتدلّية ، وكانت الأفراخ فيه مدكوكة قد سويت بالأرض واختلطت دماؤها القليلة
بأعواد القش والأوراق المتساقطة من الشجر .
إذن لقد دخل الروضة دخيل تعدد أن يستريح حماه حتى وطئ القنبرة المسكينة التى
آوت إليه .

فاعتدل وتطلع فيما حوله وعاد إليه الغضب أشد مما كان . ولم يشك في أن ذلك الجرىء
الذى اعتدى عليه لم يكن سوى جساس ، فهو وحده الذى يستطيع أن يُقدم على إيماءة مثل
هذه ليظهر بها ما في نفسه من استخفاف . فهو الذى آذى كلبه في الصباح ، وما كان أحراراً
أن يكون هو الذى حطم عش هذه القنبرة المسكينة وحطم أفراخها الرغب تحت عينها .
ولما رفع بصره إلى أعلى الخيمة رأى في الفصون القصية مواضع قضم ونزع ، فألقى نظره
على الأرض فإذا آثار إبل ورأى إلى جانب موضع العش رشم خف على الرمال ، فزاد يقينه
أن جساساً إنما هو الذى استباح حماه . فذهب ليركب وهو ممتلئ من الغيظ ، وقد عزم على أن

يفصل فيما بينه وبين الفتى الجرىء ؛ إذ صار الأمر بينهما إلى ما لا يستطيع معه احتمال . ولما هم بالسير لاحت له من خلال أشجار الروضة ناقةً تقطف الأوراق الخضراء من أعالي الغصون ، وتسير متباطئة بين الشجر تنتزع من غصونها لقيات ، فتأملها فإذا هي ناقة بيضاء ضئيلة البدن هزيلة جدباء الظهر ليس لها سنام . ولم تكن هذه من إبل حساس ، فقد كانت إبله حمراء عالية تهترأسنامها من خصوبة المرعى وعذوبة المورد . فوقف يتأملها حتى نزلت من الروضة وذهبت لتختلط بإبل حساس .

فأسرع كليب في أثرها حتى أدركها ؛ ثم وضع يده على مقبض سيفه ليعقبها .
ولكنه سمع صوتاً من ورائه ينادى في فظاظة :
- « تمهل يا كليب لا تفعل ! »

فرفع يده عن سيفه ونظر فرأى من ورائه حساساً ينظر إليه في غضب ويرق في وجهه بما اعتاد من نظرات التحدى .

فقال له معبساً : « أهذه الناقة لك ؟ »

فقال حساس : « أجل هي ناقتي » .

قال كليب : « ليست ناقتك فإني لم أرها من قبل » .

قال حساس : « هي ناقة ضيف نزل عندي وهي في جوارى » .

فقال كليب وقد عاد إلى القبض على سيفه : « لقد وطئت حماي » .

فقال حساس متحدياً : « إذا كان لك حمى فإن ناقة ضيفي في حماي » .

فصاح به كليب : « أتحمي على يا حساس ؟ »

فقال حساس « قلت إنها ناقة ضيفي » .

فكظم كليب غيظه ، وقال متساهلاً : « لقد هممت أن أقتلها . ولكن احذر أن تعود

تلك الناقة إلى الرعى في مرعاه » .

فقال حساس وقد ضحك ساخراً : « مرعاه ! كأننا لا يحق لنا أن نرعى إبلنا في هذه

الأرض ! إنما هي أرض بكر كما هي أرض تغلب ولم يورثها لك أبوك ربعة » .

فتألم كليب لذلك القول الذي لم يتعود سماع مثله وغلا الدم في وجهه ، ولكنه تمهل في

الجواب ، ثم قال : « أنصحك أن تبعد هذه الناقة عن إبلك » .

فأجاب حساس متحدياً : « لن أبعدها ، وسترعى مع إبل وحق مناة » .

فتقدم كليب نحو الشاب وقال مهدداً: « أيها الفتى ! بحق آلهة ربيعة لئن عادت هذه الناقة إلى الرعى هنا لأضعن سهمي في ضرعها » .

فضحك جساس مرة أخرى ساخراً وقال : « لئن وضعت سهمك في ضرعها ليكون لي شأن » وصمت قليلاً ثم قال في حقد : « لئن وضعت سهمك في ضرعها لأضعن رمحي في كَيْتِكَ (١) » .

ثم همز فرسه ومضى وهو يطعن الأرض برمحه وعيناه تقدحان شرراً .

فانتفض كليب كأنما لذعته نارٌ وقال وهو ينظر في أثره : « أيها الفتى الوقح ! ويل لك ! »

فوقف جساس والتفت نحوه رافعاً رأسه وقال : « سترى لمن الويل يا كليب » .

فقال كليب وهريكاد ينفجر من الغيظ : « بحق مناة لأكبحن من سفهك » .

فلوى جساس عنان فرسه حتى صار أمامه وجهاً لوجه وقال ساخراً : « ما قلت سفهاً

ولكنه الحق يصدعك (٢) . نحن الذين سودناك ، لم تسدنا بعبيدك بل سدت لأننا عززناك .

حاربنا معك حتى انتصرت بنا ، ثم تريد أن نجعلنا عبيداً لك ؟ »

فخشى كليب أن يخرج الفتى في قوله إلى أكثر من ذلك فاكتفى بأن قال : « سأعرف

كيف أؤدبك ؟ »

ثم مضى عنه مسرعاً .

وصاح جساس من ورائه : « بل يؤدبك رمحي » .

وكانت جليلاً واقفة عند باب البيت تحمل في يديها صفحة فيها طعام وشراب . فلما

وقعت عينها على كليب عرفت في وجهه الغضب . فارتاعت واضطرب قواها . وألقت

بالصفحة وسارت مسرعة نحوه ووجهها يتم عما يثور في نفسها من المخاوف .

ولم يأخذها بين ذراعيه كعادته إذا أقبل ، ولم تهتم هي بالاندفاع إليه كعادتها عندما

تراه راجعاً ، بل وقفت على خطوة منه ، وجعلت تفرك يديها لتزيل أثراً من الدهن فيهما .

ثم قالت وهي تحاول إخفاء ما بها :

« لقد أصبت صيداً كريماً يابن عم » .

فقال وهو يعلق سيفه في عمود الخيمة في وجوم : « بل أصبت شراً مستظيراً وحق ساة ! »

(١) اللبة : موضع القلادة من الصدر .

(٢) يصدعك : يكفك ويصرفك .



فقالته وهى تمنع نفسها من إظهار الجزع : « هل غضبت لأمر ؟ »
 فقال متجهماً وقد نظر إليها : « أترين يا جليلة أحداً من العرب يمنع منى جاره ؟ »
 فقالت : « ومن يجرؤ على ذلك إلا أن يكون عمك مرة ؟ هل حدث بينكما أمر ؟ »
 فقال كليب : « لم أر أباك اليوم . »
 فقالت جليلة فى شىء من الارتياح : « إذن هو جساس بن مرة . »
 فقال كليب بحقد : « وشتمنى . »
 فقالت جليلة وقد أقبلت عليه فطوقته بذراعيها : « دع جساساً يا بن عمى . إنه قتي
 أخرق ! »
 فقال كليب ، وهو يتخلص من ذراعيها : « أخرق ؟ أعلى أنا يكون خرقه ؟ »
 فعادت جليلة إلى التعلق به وقالت : « أتوسل إليك يا بن عمى أيها الحبيب . أتوسل
 إليك ألا تقطع رحمك . »
 فقال كليب : « هو الذى يقطع الرحم ، أترضين أن يهان كليب يا جليلة ؟ »
 فقالت جليلة وقد أخذت وجهه بين يديها : « اعف عنه من أجلى ، اعف عنه يا كليب !
 هو أخى فأكرمنى بالتجاوز عن خطئه . عذنى بحق مناة . أتفعل ؟ »
 فسكت كليب ولم يجب ، بل حاول أن يتخلص من يديها . ولكنها تعلقت به ، واستمرت
 تتوسل وترجو .
 ونظر إليها كليب فرأى دمة تنحدر على خديها وهى متجهة إليه بعينيها المغرورتين .
 فتردد لحظة ثم ضمها بين ذراعيه بقوة وقال لها : « لقد طالما عفوت عنه يا جليلة من أجلك . »
 ثم قبلها بين عينيها ، ومضى يحدثها فأفصى إليها بما كان من جساس .

كانت الشمس قد مالت للغروب ، وصبغت الأفق الغربى بلون القُرْمِزِ^(١) ، ولم يبق من شعاعها إلا فلولٌ ذهبية تتعثر في أذيال سحابة بيضاء تسير قرب الأفق متباطئة . وكان نسيم المساء المقبل يهب بارداً من صوب الشمال ، يحمل معه طلّائع برد ليل الشتاء في صحراء الإمامة من بلاد نجد .

وجلس مُرّة ، شيخ بكر ، وحوله شيوخ العشائر يتحدثون عن أحداث اليوم ، وعن عزمات الغد ، والعبيد يجمعون الأحطاب من بطون الأودية ويكدسونها أكداً في وسط حلقة الجلوس ليوقدوا منها النيران .

وأقبل جَسَّاس بن مُرّة يسير متباطئاً ، حتى اقترب من أبيه الشيخ ، فوقف وراءه وهو صامت ، وقد استند على رمحه المركوز في الرمل الناعم اللامع .

فنظر إليه الجلوس في صمت ؛ إلا أباه مُرّة ، فقد أطرق ولم يلتفت إليه ، وعلت وجهه سحابة خفيفة من كآبة ، كأنه لم يسترح إلى مقدم ابنه الشاب في ذلك الوقت .

وكان جساس مقطب الجبين ، تلمع عيناه لمعة الغضب ، وكان شعره الطويل الأسود مضافاً في غداثر ملتوية ، تهترأطرافها مع النسيم فوق كتفيه .

وكان طويل القامة ، دقيق العود ، ليس في لحمه فضلة من شحم تُدَوِّر ملامحه ، فبدأ في وقفته تلك كأنه رمح يتكئ على رمح ، وبدت تقاطيع وجهه حادة قوية ، تجمعت حول فم منقبض تكاد شفتاه لا تنفرجان .

وقطع جساس السكون بعد قليل ، فقال بصوت أجش : « أما لهذا الهوان من آخر ؟ »

فنظر الجلوس إلى أبيه الشيخ ولم يتكلموا ، وانتظروا ما يقوله الشيخ لابنه الغاضب .

وكان الأب مُحْتَبِياً في جلسته ، جمع ركبتيه في حبل دقيق مربوط من تحت إبطيه ، فلم يحلّ حَبْوتَه ، ولم يلتفت وراءه ، بل قال بصوت هادئ لا يكاد يسمع ، وقد زاد وجهه عبوساً : « دعنا اليوم من هُرائك » .

(١) القُرْمِز : صبغ لونه أحمر قان .

فانفجر الفتى عند ذلك ، وقد أنساه الغضب ما يجب لأبيه من توقير فقال : « إني لن أصبر على ما تصبرون عليه . هأنذا قد أُنذرت » .

فحل أبوه حبوته ، وانتفض كأنه قد أحس وخزة ألمة ثم قام ودار بوجهه إلى ولده وصاح به :
« ماذا تقول ؟ »

فوقف الشاب مرفوع الرأس في تحد ، وقال وصوته لا يزال أجشَ جافاً : « أقول إنني لن أصبر على الضيم . هذا رجل يسومكم الخسف ولا تتحركون . قد وضعتم أعناقكم إليه ليطأها بقدميه . ولكني لن أكون معكم في ذلك العار » .

فقال أبوه ، وقد اريد^(١) وجهه : « من تعنى بقولك أيها الفتى الجاهل ؟ أتعنى سيد ربيعة ؟ أتعنى كليلاً ؟ أتعنى الرجل الذي حفظ قومك من العار ، وحماهم من الذل ؟ أتعنى وائل بن ربيعة ؟ »
فقال الشاب ولا يزال في صوته زنين الحقد والغضب :

« نعم أعنى وائل بن ربيعة . أعنى كليب بن ربيعة ، ذلك الذي يجعلكم عبيداً . ولا يعدكم إلا أتباعاً وخداماً » .

فسرت في الجلوس ضجة مكتومة ، ولا سيما من شيوخ بني تغلب ، وتحرك بعضهم يريد القيام غضباً .

فأشار إليهم الشيخ بيده أن يصبروا ، فهدأت الضجة ، وسكن اللفظ ، ونظر القوم إلى الشيخ ، وقد اعتدل أمام ولده الغاضب ، كأنه يريد أن يبطش به .

ولكنه تحول بعد لحظة قصيرة وكأنما جال في نفسه خاطر طارئ صرفه عما كاد بهم به من عقاب ابنه ، ثم نظر إلى القوم وقال لهم وهو يحاول أن يجمع شعوره ، ويكبح العاصفة الثائرة في صدره :

« يا إخواني وأبناء عمي ! اجعلوا ما قاله هذا الفتى يذهب مع الريح ، فاهوإلا من جهل شاب ، ليس يدرى ما حق هذا الأمير عليه » .

ثم نظر إلى ولده ، وقال وهو متجهم :

« أيها الابن المنكود ، لقد صبرت على كثير من أذاك ، ولكني أراك تُماديت ، وأحب أن أعلمك بشيء لست تعلمه ، لعلك ترجع عما بوغر صدرك ، ويوشك أن يقطع بينك وبين أبيك » .

(١) اريد وجهه : علته حمرة فيها سواد من شدة الغضب .

فأطرق الفتى وخشع قليلا ، عندما سمع قول أبيه ، واعتدل في وقفته ، وقد أحس شيئا من الخجل ، لما أظهر من التحدى لشيخه . ولحظ أبوه ذلك فالان من عبسته ، كأنه قد أمل أن يستلين قلب ابنه بالحجة والموعظة ، لأنه كان يعلم أن الرهبة لن تمنع ذلك الابن من الإقدام على عظام الأمور .

واستمر مرة فقال يخاطب شيوخ قومه ويُسَمع ابنه : « لقد علمتم ما كان من سطوة قبائل اليمن بنا ، وإذلالهم إيانا ، أيام كنا لا نملك لأنفسنا أمراً ، ولا نقوى على رد اعتداء » .
فقال شيخ أبيض اللحية كان أقل الجلوس أكثرأثا بما يجرى حوله : « قسماً بمناة ، لقد كانت قبائل اليمن تحتاج أرض تهامة ونجد ، لا يقوى أحد على أن يرفع رأسه لها » .
قال مرة متجهاً إلى ابنه : « صدق أبو عامر . لقد كانت مَذْجج تسومنا الخسف ، ولا تجتمع لنا كلمة في مقاومة عسفها ، وبقينا مفرقين أشتاتاً حتى أتى وائل بن ربيعة ، ذلك الأمير الذى تحدث عنه هذا الحديث القبيح ، فاجتمعت عليه كلمة قومك ، من بنى شيان ، ومن بنى أبيهم بكر ، ومن بنى عمهم تغلب ، فوقف بهم يوم خزازى ، حتى قادهم إلى النصر والعز والمجد » .

فسرت في الجمع عند ذلك مهمة الارتياح ، وعاد أبو عامر إلى الكلام فقال :
« أما أنك لتذكرنا بأيامنا المجيدة يا أبا همام ، إني لأذكر النار التي أوقدت فوق خزازى لتهندى بها وتجتمع عندها ، وإني لأذكر كيف قاتلنا وكيف كانت كل ساعة تطلع بنا على بطل جديد من بيتنا . كان ذلك كأنه بالأمس القريب ، ولقد شئى وائل بن ربيعة نفوسنا وحق مناة من العدو المنذر » .

فعاد مرة إلى الحديث فقال :

« وإنا لو أعطينا وائلا أموالنا وأنفسنا ، لكان ذلك بعض حقه علينا . فقد حفظ أعراضنا ، وأعلى أمرنا ، وجعل سيادة العرب لنا » .

فرد الجميع موافقين ، وقال أبو عامر : « إن يد وائل بن ربيعة علينا لا تُكافأ بمال » .

فتحرك جسام في غيظ وانفجر بعد أن عجز عن كتمان ما في نفسه وقال وهو يهتد :

« وحق مناة ما أراكم تنطقون بما تطوبون عليه الجوانح . فهل آن لكم معاشر بنى بكر أن تعرفوا أن كلياً قد أركب عليكم قومه تغلب ؟ إنكم لتعلمون أنه يمنعكم الماء حتى يُصدر عنه عبيده ، ومنعكم الرعى حتى تمتلئ بطون إبله ، ويحمى عليكم الوحش في القفلة فلا تستطيعون

أن تصيدوا بها طليباً أو تحترشوا ضباً . وإن صدوركم لتتمزق من الغيظ ولكنكم تخفونه من خوف بطشه . »

فتقدم مرة نحوه مهدداً ووضع يده على مقبض سيفه وصاح به : « لا كنت أيها العفوق ! » فأسرع إليه أبو عامر وأمسك بيده بمنعه ووقف جساس حيناً ينظر إلى شيخه وهو يرتعش في اضطرابه ثم حول وجهه وأسرع ذاهباً عنه في حق وعيانه تقدحان شرراً .

وكان الليل في أثناء هذا قد أقبل وأرخص على الآفاق سدوله ، ولعت أنوار النيران على وجوه القوم وهم جلوس حولها مطرقين يشفقون أن يرفعوا عيونهم نحو الشيخ في ثورته . ولم يجد مرة في نفسه ارتياحاً إلى البقاء في نادى قومه بعد أن كان من ولده ما كان ، ولم يدر كيف يستطيع أن يداوى وقع تلك الألفاظ القاسية التي فاه بها الفتى في ثورته ، ورأى الأمور تتعقد وتتجهم .

ولم يدر ماذا ينبغي له أن يفعل ؟ ولا أين يجب عليه أن يقف ؟ فقد فتح جساس عليه باباً من الفتنة ما كان أحب إليه أن يبقى مغلقاً . ولم يدر كذلك ماذا يحمل الغد المقبل في طياته بعد أن أقحم ذلك الشاب المنكود في غضبته ذكر بكر وتغلب ؟ فإن بكرأ وتغلب من صلب أب ، وقد أقاما معاً على حالى العسر واليسر ، فإذا يحقّ لهما الغد في طياته ؟ هذا جساس بن مرة ينادى بكرأ أن ثور ، وما كانت تغلب لترضى أن يطمع أحد في ملكها . فلم يجد الشيخ في حيرته هذه إلا أن يذهب عن الجمع لعله يهتدى في خلوته إلى ما يضيء له تلك الظلمات .

وكان الهواء قد برد ولف الشيوخ عليهم العباء . فلما تركهم مرة قاموا في أثره إلى البيوت يستدفئون وراء جدرانها الصوفية السميكه ، ويتم كل منهم الحديث مع عشيرته في خلوة من الرقباء .

وأقبل مرة نحو بيته ، وكان يسير مطرقاً ، يفكر فيما عساه يفعل مع ولده الغاضب ، وهو يتوجس خيفة من طيشه وحمقه . فقد عرف جساساً سريعاً إلى الفتك ، مقداماً على الشر ، لا يتردد في أن يلجأ إلى سيفه إذا ظن أن أحداً اعتدى على كرامته ، أو مس كبريائه ، وعرفه لا يبالى من يكون ذلك الذى يقدم على عداوته ولا يعبأ بما يحجره إليه غضبه .

عرف الشيخ أن ولده لن ينصرف عن كليب إذا تعقدت الأمور بينهما ، ولن يثنيه عن الانتقام لكبريائه شيء ، ولو سالت دماء قومه في حرب ضرورس تفرق بني العم . وتجبر الشؤم على القوم .

جعل مرة يقلب وجوه الرأى فيما يصنع مع ابنه ، حتى يصرفه عن التعرض لكليب .

حتى لقد فكر في أن يُبعده عن منازل قومه ، لكيلا يجمع بينه وبين الرجل الذي داخله الحقد عليه .

ولم ينتبه من تفكيره ذلك إلا عندما سمع صوت ابنته جلييلة تنكلم مع أمها في الخيمة من وراء الستار ، وتبين من صوتها أنها كانت تتحدث وهي مرتاعة ناثرة النفس . فدخل إلى بيته ، وكان بيتاً رفيع الأركان ، قد أقيم على أعواد عالية ، وشدته إلى الأرض أوتاد كبيرة تمتد إليها جبال ضخمة من أوبار الإبل وأصواف الغنم . فلما سمعت جلييلة وقع أقدام أبيها سكنت ، ثم وقفت تنتظر دخوله ، وقد ارتسم على وجهها ما كان في قلبها من الخوف . ثم اقتربت إليه فقبلت يده في خشوع .

فقال مرة : « مرحباً بك يا جلييلة . خيراً ما جاء به هذه الليلة ؟ »

ثم التفت فرأى ابنه يجلس إلى جانب في ركن من الخيمة وأمه تنظر إليه كأنها كانت تحدثه في غضب .

ف قالت جلييلة وهي تحاول أن تهدي من روعها : « ليس بي إلا ما تحب يا أبي » .

فقال مرة : « لقد سمعتك تنكلمين مع أمك » .

وما كاد يتم قوله حتى انفجرت جلييلة تبكي ، ووضعت يديها على عينيها تحاول كتمان صوت البكاء .

فوضع مرة يده على رأسها ملاطفاً ثم قال : « ماذا يحزنك يا بنيتي ؟ »

فاستمرت في بكائها ملياً ، ثم قالت بين شهقاتها : « أدرك جساساً يا والدي » .

فقال لها وقد نظر نحو ابنه : « لا تخافي يا بنتي » .

قال ذلك ليهدي من روع ابنته ، ولكنه كان يكذب قوله بنبرات صوته المترددة ونظراته

الغاضبة إلى ولده .

ف قالت جلييلة : « أما سمعت يا أبي بما كان بينه وبين وائل ؟ »

فسكت الشيخ ولم يُرد أن يزيد من ارتباها ، فقال : « لم يكن بينهما إلا ما يكون بين

ولدي عم . إنها غاشية لن تلبث أن تنجلي » .

قالت جلييلة : « إذا لم تعلم يا أبت . إذا لم يخبرك جساس » .

فقال مرة وهو يحاول كتمان غضبه : « لا تخافي يا ابنتي . لن يكون بينهما إلا ما تحيين » .

ثم التفت إلى جساس وقال : « أكان بينكما نزاع ؟ »

قال جساس وشفتاه تختلجان : « قال لي قولا فردده عليه » .

فصاحت جليلة : « ألم تهدده ؟ ألم تسبه ؟ »

قال مرة مرتاعاً : « هددته ؟ »

فقال جساس وقد أعلى صوته على صوت أبيه : « نعم هددته إذ هددني . ألسنت جساس

ابن مرة ؟ ألسنت من شيان سادة بني بكر ؟ فماذا يفضلني كليب ؟ »

قال مرة وقد أودع كل أله في كلمته : « أيها المنكود ! »

ونظر إليه غاضباً . فأغضى الفتى أمام نظرة أبيه ، وبقي صامتاً . فقالت جليلة مخاطبة

أخاها :

« أي جساس ! أنت أخي وهوزوجي . فبحق عليك لا تقطع رحمك ، ولا تؤذني

في صاحبي » .

فعاد مرة إلى ملاطفتها قائلاً : « لا تخافي يا جليلة . لن يكون هذا الولد مني إذا هو عصي

أمرى » . ثم نظر إلى ابنه وقال :

« أأنت يا جساس ولدي ؟ أأنت مطيع أمرى ؟ »

فقال جساس : « قد علمت أنه قد حمى خير مراعي جبالنا وعلمت أنه يطغى علينا

ويذلنا ويأبى إلا أن يكون سيداً لنا » .

قال مرة : « علمت ذلك قبلك ، ولست في حاجة إلى قولك . وقد أقررنا ذلك ورضينا

عنه . على أن إبلنا ترعى مع إبله فلا يتعرض لها ، وتسعى إلى موارده فلا يمنعها عنها . وهو بعد ذلك

صهري ويتخذني له والداً » .

قال جساس : « ولكنه يريد أن يفضحنى مع جارى » .

قال مرة : « جارك ؟ ومن جارك هذا ؟ »

قال جساس : « سعد بن شميم الجرهمي ، رجل نزل ضيفاً على خالتي البُسوس ، وله

ناقة ترعى مع إبل ، فطردها كليب وقال لوعادت إلى الرعى ليضعن سهمه في ضرعها » .

فسكت مرة ، وبقي ناظراً إلى ولده ينتظر أن يتم الحديث . فقال جساس : « فقلت له

لأوضعت سهمك في ضرعها ، لأضعن رمحي في لبنك » .

فقال « مرة » وهو يكم ما ثار في نفسه من الغضب : « سأخذ إبل جارك لأرعاها مع

إبلى » .

قال جساس معانداً : « ولكنى لا أفرط فى أمر جارى » .

قال مرة يحاول تهديته ولده : « وأنا كذلك لا أفرط فى جارك ، سأرعى نافته مع إبل »

فقال جساس غاضباً : « لا بل ترعى إبله مع إبل ، والويل لمن تعرض لها » .

ثم خرج من البيت غاضباً ، فذهب ولم يرجع إلى بيته ، ولم يعرف أحد أين قضى ليلته ؟

وجعل مرة يخفف من خوف ابنته ، ويهدئ من روعها ، وجلس يحادثها ويضحكها ،

وهو ثقل القلب ، يتوجس خيفة مما قد يحجره عليه نَزَق (١) ولده ، فلما اطمأنت جليلة

إلى وعود أبيها قامت لتعود إلى بيتها ، وخرج أبوها معها ليؤنسها فى ظلمة الليل ، حتى إذا بلغ

قبة كليب العالية ، تركها عند المدخل وعاد إلى بيته . وكان الهم يملأ قلبه ، من توقع ما يكون

بين ابنه وبين زوج ابنته .

مضت أيام كانت منازل بكر وتغلب في أنثائها لا تظلل إلا وجوهاً جاهمة عابسة ، وكانت الأندبة خالية لا يتبادل فيها الشيوخ الهمسات ولا توقد في وسط براحها النيران ؛ قد شغل الجميع هاجس من توقع الفرقة بين أبناء العم الذين عاشوا معاً في ربوع نهامة والجمامة سنين متصلة يتقاسمون العيش في سراء وضراء ، ويتعاورون^(١) المروج في وعيمهم وصيدهم ؛ تجمعهم جميعاً ذكريات الجهاد المشترك مع عدوهم من ملوك اليمن وقبائله . فإن الصيحة التي صاحها جساس لم تكن إلا صدى لما في قلوب شباب بكر جميعاً .

كان الشيوخ إذا أحسوا من كليب طغياناً طووا ما أحسوه تحت الصمت العميق وشفعوا سابق فضله . كانوا يحسون أن كليباً قد أطفاه الملك وأبطره^(٢) ما يلقاه به قومه من التبجيل والتكريم . ولكنهم كانوا كلما ثارت نفوسهم من طغيانه تذكروا سابق الذلة التي كانوا يشنون تحت أعبائها عندما كانت قبائل اليمن تتحكم في أرضهم فيؤثرون الذلة لابن العم ويصبرون على كبرياء كليب وعسفه ، فإن ذلك لا يُجرّعهم من الغصص مثل ما كانت تُجرّعهم وطأة حكم الغريب . ولكن جساساً صاح صيحته وتلقفها من ورائه الشبان ممن لم يعانون غصة حكم قبائل اليمن ولم يشهدوا عسف أقيامهم وجور ملوكهم . لم ير هؤلاء الشبان كيف كانت شيوخهم تقتل وتسجن ، ولا كيف كانت أموالهم تسلب ، ولا كيف كانت حرمانهم تستباح . لم يشهدوا شيئاً من ذلك ، وكان كل ما شهدوه هو كبرياء كليب واستنثاره بالسلطان دونهم وحماية الوحش من صيدهم .

فلما سمع هؤلاء الشبان صيحة جساس اهتزوا لها ورددوها فيما بينهم ، لا يبالون أن يضرروا في قبائل ربيعة نارا لا تطفئها إلا الدماء السائلة بين بني الأب والأم . فكان الشيوخ كلما سمعوا صيحاتهم أشفقوا وجزعوا مما يحمله الغد من كوارث تفجعهم في الولد والحميم ، وفي النفس والمال . لقد طالما عركوا الحروب وخاضوا غمارها ، وما كانوا ليخفوا إليها إذا

(١) يتعاورون المروج : يتداولونها فيما بينهم .

(٢) أبطره : جعله بطنى .

استطاعوا إلى تجنبها سبيلا . لقد عمهم السلام ودرّت لهم الأخلاف^(١) وأمرعت^(٢) لهم المروج ، واستقرت السيوف في أعمادها ؛ إذ هابتهم قبائل العرب جميعاً وتحامت عدوتهم وتركهم يستمتعون بثّار النصر الباهر الذي كان رمزه وصاحب علمه كليب - وائل بن ربيعة - .

كان الشيوخ يشفقون أن يستبدلوا بذلك السلام وهذا الرخاء حرباً تستنزف دماءهم وتخرب عمرانهم وتضيع ما حازوه من أموال ؛ ولهذا قضوا تلك الأيام التي أعقبت صيحة جساس واجمين ، كل منهم منطو على نفسه يفكر فيها هو صانع بنفسه وفيها هو محتال فيه مع بنيته وحفدته من أولئك الشبان الأغرار الذين لا يكتفون ما في نفوسهم ولا ينظرون في أعقاب نزواتهم .

ولكن الأمور لم تقف ؛ فإن قلب جساس كان يغلي من غيظه وحقدّه فلم يدع له اطمئناناً في صباح ولا مساء ؛ بل كان يدفعه ويشوربه فلا يزال يضرب في النجوع ليُلم بكل فتاك من الشبان يحرضهم وينقل إليهم ما لم يبلغهم من أنباء عسف كليب . فصار لا يأوى إلى منازل أهله إلا الساعات القلائل في طويل الأيام ، فإذا آوى إليها لم يرتح إلى حديث أحد ولم يرتح أحد إلى حديثه إذ استبدت بخياله صورة واحدة ، صورة كليب ، وهو يرفع رأسه عليه شموخاً وينظر إليه ساخراً باسماً ، كأنه السيد يأمر بعض عبيده ويشير إليهم بإصبعه فلا يسعهم إلا أن ينحنوا وأن يطيعوا .

في تلك الأيام الجاهمة الساكنة كان شابان اثنان لا يعبان بشيء مما يفكر فيه الشيوخ ، ولا يباليان شيئاً مما يصل إلى أسماعهما من ثورة جساس . كانا صديقين شباً معاً وتقاسما حياة النعيم في أكبر بيتي ربيعة . نشأ في سلام لم يعرفا مآزق الحروب ، وفي بحبوحة من العيش لم تلجئهما ضرورة إلى كبح النفس عن لذات الحياة . وكانا جميلين ناعمين تركهما الأهل للهو ، فلم تكن بهما حاجة إلى الجدد ، واكتفى الشيوخ بأن يتحدثوا فيهما وأن يتكلموا بانصرافهما إلى اللذات ، وعَفُوا عليهما في الأحاديث . ولكنهما لم يباليا من ذلك شيئاً ، فما كان يضرهما أن يسمعا رأى الشيوخ فيهما إذ كان أبعث لهما على المرح والاستهتار بالمجون .

كان أحدهما عدى - المهلهل بن ربيعة - الذي كان أخوه كليب يسميه زير النساء نهكاً وسخرية ، وكان الآخر هَمَام بن مرة أخو جساس .

(١) الأخلاف : جمع خلف وهو ضرع الناقة .

(٢) أمرعت : أنخصت .

ترك الصديقان الشابان منازل الحي الساكنة الجاهمة واعتزلا في روضة من الرياض عند رأس وادٍ صخريّ ضيق تنحدر جوانبه في درجات وعرة تجرى من فوقها جداول من مياه المطر المجتمعمة عند رأسه ، وكانت المياه في هبوطها على الجوانب الصخرية تهمس في خرير رقيق يشبه وسوسة أوراق الأغصان إذا هزها النسيم . وكانت السفوح مخضرة تكسوها خصل متفرقة من أعشاب بارضة وشجيرات قصيرة أحياها الموسم المطير .

وأعدّ الصديقان ليومهما عُدته من خمر وفاكهة وطعام ورياحين من زهور العرار العطرة البيضاء ذات الحدة الصفراء ، وبعثا إلى فتيات من خليعات القبائل ليؤنسهما في المنادمة على الشراب ، كما اعتادا ذلك في مجالسهما إذ كانا لا يرهبان أن يتحدث عنهما الناس ، فما كان ذلك عنهما بالحديث الجديد .

وبقيا في مجلسهما إلى أن تصرم ^(١) . النهار وهب النسيم بارداً يؤذن باستطالة الظلال ، واضطربت غصون الأشجار ، وتمايل سعف النخلات ودارت الخمر بهما فاضطجعا ، ومالت النسوة حوطما يتهافن ^(٢) بضحكات وسّى ^(٣) . ولكن زقاق الخمر كانت في وسط جمعهم بعضها ملىء وبعضها مفشوش ، ولا يزالون يملئون منها الكؤوس كأماً بعد كأس ، وهم كلما شربوا منها زاد بهم الظمأ وطلبوا المزيد . وفيما هم في ذلك لاح لهم قادم من أسفل الوادى فنظرت إحدى النساء إليه وقالت ضاحكة بلسان متلعثم : « هذا ضيف كريم ! »

فنظرت أخرى نحوه وهمت قائمة وهي تقول : « ما رأيته مرة إلا كرهت الرجال » .

فجذبته أخرى ضاحكة في خلاعة وهي تقول :

« لنسقيته معنا حتى يلين ، فإننا لا نعرف الانهزام » .

وعلت الضحكات من الجميع حتى سمعها القادم وهو يعلو فوق جانب الوادى الصخري

متكثراً على رمحه ، فرفع نحوهم رأسه فرآه الجالسون وصاح همّام في شيء من الفرع :

- جساس !

فضحك مهلهل وقال : إنك لترهبه رهبة لا تحمل مثلها لأبيك مرة .

(١) تصرم النهار : ذهب وانقضى .

(٢) المتاف : ضحك فوق التيسم .

(٣) وسّى : فائرة كسل من النعمة .



فضحك النساء وقالت إحداهن :

- وحق مائة لوجاء مرة إلى هنا لأبكنّ لحيته من هذا الزرق حتى تعود صفراء !

فصاح همام وهويضحك :

- حببك أيتها الخرقاء فلسنا عن الزق في غنى .

فعلا ضحك الجميع ؛ وكان جساس قد بلغ موضعهم وحياهم في وجوم . فدعاه المهلهل إلى الجلوس وهويضحك ، ولكنه لم يجب إلى المرح ، وجلس صامتاً معبس الوجه ، مضطرب الأنفاس . ومد رمحه أمامه وجعل يعث فيه بأصابعه وكفيه ، ويقرع به الصخر حيناً أو يرسم به على الأرض خطوطاً . فقال له همام ضاحكاً :

- هل لك في كأس يا جساس ؟

فأطرق جساس وزادت عبسته عمقاً وقال في صوت خافت :

- قد حرمتها على نفسي ، وأنت أولى بها .

فقال المهلهل يمازحه :

- لعل لك ثأراً فأليت لا نشرب حتى تدركه .

فقال جساس في مرارة :

- بل ينبغي للعبد ألا يطرب .

فلم يرتج أخوه همام إلى جوابه وقال :

- ومن العبد ويحك ؟ إنك جساس بن مرة .

فقال جساس مسرعاً وقد نظر إلى أخيه حانقاً : « وهل ينبغي لابن مرة إلا أن يكون

عبداً » .

ولم يرتج النساء إلى هذا الحديث ، فقد كان منظر جساس لا يدع لمن جراً عليه فقمين واحدة بعد أخرى ونسلن وتركن المجلس الكريه .

وما سمع همام إجابة أخيه حتى انتفض كأن النار قد لدعته ، وهم أن يرد على أخيه رداً قاسياً لولا أنه رأى عبداً يقبل وهويحمل على كتفه شيئاً ضخماً ، فنظر إلى أخيه نظرة قاسية ، ثم صرف عنه وجهه إلى العبد القادم ، فإذا هو من خدم كليب يحمل على كتفه وعلا من الصيد . .

فقام المهلهل نحوه مسرعاً متعظاً يكاد ينكفئ ، ومد ذراعيه نحو العبد وساعده على إنزال

الوعل . وصاح وهو ممتلئ بالسرور :

« هدية بطل حبيب . . ريع كليب وحق أوامر ! »

فما كاد جسامس يسمع صيحة المهلهل حتى وثب قائماً ، وركز رمحه في الأرض ووجهه ينم عن الغيظ والحقد . وقال يتمم من بين أسنانه موجهاً الحديث إلى أخيه :

- تمتع بفضلات الكرام ؟

ثم انصرف وهويطن الأرض بسن رمحه حتى غاب وراء الكثبان .

ووقف همام أخوه ينظر في أعقابه حتى غاب عنه وهو يزدرد غيظه حتى لا يفسد على نفسه متعة اليوم . ثم ذهب نحو صديقه ليشاركه فيما هو فيه ، فسمعه يسأل العبد :

- ومتى عاد كليب من صيده ؟

فقال العبد في خضوع : حضر الساعة ومعه الصيد فسأل عنك حتى علم بأنك خرجت منذ الصباح . فأعطاني هذا وأمرني أن ألتمسك حيث تكون لتذوق من صيده .

فصاح المهلهل في حماسة :

« أنعم مساء يا كليب ! إنك لتذكر على البعد زير النساء . »

ثم ضحك وشاركه همام في ضحكته قائلاً :

كليب للصيد والحرب ، وأما المهلهل . . .

ولم يتم همام قوله لأن المهلهل صاح ضاحكاً يتم له كلمته .

- والمهلهل للمجون والشراب .

ثم علا ضحكهما وأقبلا على الوعل يساعدان العبد في سلخه وإعداده للطعام .

لم يجد كليب استراحة إلى الإقامة في منزله ، ولم يكن في ثورة نفسه يرتاح إلى الترهة في روضته ، وعاف الطعام فكان لا يصيب منه إلا إذا ألحت عليه جليلة ، ثم لا ينال منه إذا أكل إلا اليسير . وعاف الشراب ، وبجالة التذمان ، وخيل إليه أن الجوالذي حوله كله بأتمر به ويخادعه . فكان لا يجد راحة إلا في القلوات^(١) ، يضرب في كبدها ، ويغرق شجونه في السير الطويل والركوب العنيف ، حتى تمنى لو ثارت الحرب لكي يجد في ضجة معامعه ما يبعد عنه تلك الوسوس التي ساورته . وكان الصيد أحب ما يخرج إليه ، فكانت مطاردة الوحش لا تدع فراغاً لهواجس غضبه المكتوم ، تلك الهواجس التي كانت تزدهم في صدره حتى يضيق به كلما خلا إلى نفسه . فكان يخرج إلى الصيد فيقضى فيه يوماً أو أياماً ، ثم يرجع حيناً قصيراً فلا يلبث إلا قليلاً ، ثم يعود إلى القلوات يلتمس فيها التفرج عن قلبه المكروب .

قام يوماً من تلك الأيام من نومه في بكرة الصباح فأخذ قوسه وكنانة سهامه وهم بالخروج وكانت امرأته جليلة تنظر إليه وعيناها مغروقتان بالدمع ، تتبع حركته في لفة ووجل ، وتسأل نفسها متى يعود السلام إلى قلب هذا الزوج الحبيب الذي قد تبدل فصار لا يطمئن ولا يستقر ؟ وكانت آلامها تزيد كلما تذكرت أن سبب كل هذا الذي أصاب زوجها من الاضطراب ، إنما هو أخوها الذي أثار عليه النفوس وتجراً عليه في غيبته وأمام عينيه ، ولم تستطع هي ولا أحد من أهلها أن يسلموا من قلبه الحقد الذي ملأه وملك عليه زمامه . ولقد طالما حدثته وتوسلت إليه وسمعت أمها تجادله وتحاول أن تنفيه عن عداوته ، وسمعت أباه وهو يعنفه ويغلظ عليه القول ، ولكن ذلك كله ذهب مع الريح وبقي جساس يغذى وسوسه وعداوته بكل ما استطاع أن يلتصقه من غلل ؛ فكان يرى في كل نظرة من نظرات كليب احتقاراً ، وفي كل كلمة من كلماته إهانة ، وفي كل فعل من أفعاله آية جديدة على كبريائه وطغيانه ؛ ولج به الخيال حتى حلت هذه الوسوس محل العقيدة لا يتزعزع عنها ولا يقبل المجادلة فيها .

فكان هذا أبعث على زيادة تألمها واشتداد حيرتها . فلما رأت زوجها خارجاً ولم يستقر

(١) القلوات : جمع فلاة وهي الأرض الواسعة المقفرة .

في منزلها إلا بعض ليلة برح^(١) بها الحزن ووقفت في سبيله تنظر إليه صامته والدمع يجول في عينيها .

فنظر إليها كليب واهتز فؤاده إشفافاً وقال لها وهو يحاول الابتسام :

— مالى أراك مكثبة يا جلييلة ؟

وكان هذه الكلمة قد حلت عقدة حزنها فانفجرت تبكى ، وألقت يديها على كتفيه وطوقت بهما عنقه ، وأمالت رأسها إلى صدره وهي تنشج^(٢) بالبكاء .

فوضع يده على رأسها ثم ضمها بعطف وقال لها : « إننى لا أطيق بكاءك يا جلييلة فما الذى يحزنك ؟ »

فقالت له في بكائها : « لو كنت تتألم لحزنى لما غبت عنى كل تلك الأيام . إنك لم تأت من صيدك إلا الليلة وأراك تبكر بالخروج » .

فقال لها وهو يحاول الابتسام لتهدئتها : « أتحيين أن تكونى معى يا جلييلة ؟ لقد وددت لوركبت الخيل ورميت بالقوس فإنك خير من أحب صحبته » .

فقالت جلييلة وفي صوتها رنين اللوم : « بل تريد أن تبعد عن منزلك وتتعمد أن تغيب عنى » . ثم نظرت في عينية قائلة :

« بحق مائة يا وائل ابق معى بحق أوألا لا تخرج اليوم عنى » .

فقال كليب باسمياً : « كأنك تخشين على إذا خرجت ؟ »

فأسرعت قائلة وقد خفضت رأسها : « بل أخشاك أنت . إننى لا أخشى عليك فليس

فى قبائل ربيعة من يتجرأ عليك » .

فزرم وائل شفتيه وصمت لحظة ، ثم قال كأنه يحدث نفسه : « ليس فى ربيعة من يتجرأ على ؟ » ثم تدارك كلمته فضحك وقال :

— لا تخشى يا جلييلة منى .

فنظرت جلييلة إلى وجهه ورفعت كفيها إلى عارضيه^(٣) فضمتهما بينهما وقالت بصوت

متهدج :

(١) برح : اشتد .

(٢) تنشج : تغص بالبكاء من غير انتحاب .

(٣) عارضيه : صفحة خديه .

« لم لا تستقر في بيتك حيناً ؟ لم لا تبقى هنا كما كنت بين أهلك وقومك ؟ إنك كل يوم تضرب في أفق جديد ، وقد يحملك الصيد إلى مهالك البيد^(١) . لست آمن عليك أن تفتح أرضاً فيها عدوك ولا آمن أن تبدر منك بادرة فلا تملك نفسك » .

فقال وقد مد يده إلى رأسها وجعل يمسح بكفه على شعرها :

- هدئي روعك ولا تطيعي جزعك .

ثم ضمها إلى صدره ضمة أودعها ما في قلبه من المحبة لها .

فقالت جليلة :

- وماذا عليك لو أقمت اليوم ؟ إنك لم تذق راحة منذ أيام وأولى لك لو بقيت اليوم في منزلك .

فقال واثل متردداً :

« وما الذي يحملك على هذا القول يا جليلة ؟ لقد طالما خرجت وأقمت الأيام في صيدى ولم أرمك مثل هذا الحزن الذي أراه » . وسكت حيناً ثم قال ضاحكاً :

- لقد قلت لي هذه الليلة إنك كنت عند عرافة^(٢) تغلب وهذه تيمتها^(٣) قد وضعها بيدك حول عنق . ولم أرد أن أعصيك حتى أزيل عنك خوفك . فهل هي التي أمرتك بأن تُقعديني ؟

فحولت عينها عنه ولم تجبه ، فضمها إليه باسمًا وقال لها :

- إذن فهي التي حذرتك من خروجي ، وأنت تريدني على الاحتجاب حتى تأذن لي عرافتك .

فتبسمت جليلة ابتسامة ضئيلة وأخفت وجهها في صدره وقالت :

- وماذا عليك لو أطمعني ؟

فقال لها : أتحين أن يتحدث الناس أنني خشيت أن أخرج ؟ لقد تحدثت الأندية بما قال جساس عن طغياني وكبريائي . أتريد أن تتحدث المجامع بأنني أحتجب خوفاً حتى تأذن لي عرافة تغلب ؟

(١) البيد : جمع بيداء وهي الفلاة .

(٢) العرافة : المنجمة .

(٣) التيممة : ما يعلق في العنق لدفع العين مثل الخرزة .

فقالت جلييلة في عناد وهي تنظر إليه :

- ألا تطيع رجائي ؟ ألا تحبب توسلي ؟ بحق حبي لك أظعنى إذا لم تجد من حبك لى ما يحملك على البقاء سابق اليوم إلى جانبى . لا يستطيع أحد أن يقول إنك خشيت الخروج . أنت فارس العرب وسيد ربيعة كلها ، ولن يستطيع أحد أن يقول إنك تخشى .

فحول وائل عينيه عنها حتى لا يرى دمعها وقال : « إن حبي لك يا جلييلة لا يعدله عندى فى الحياة حب ، ولكنك لا ترضين أن يتحدث الناس عنى حديث السخرية أو يظنوا بى الخوف . مُرينى أن أخرج حتى أكون قد أظعتك . مُرينى أن أخرج إلى صيدى وأن أُخرس لسان عدوى » .

وسكت لحظة ثم قال : « وإذا كنت تخشين أن يتعرض أخوك لى فإنى أعدك أننى سأفصح له من صدرى وأمد له من عفوى » .

ثم تخلص برفق من بين ذراعها ، واتجه نحو باب الخيمة . ووقفت جلييلة تنظر إليه فى صمت وقلبا يحقق ، وعيناها لا تزالان تدمعان .

ولما خرج كليب إلى فناء منزله لاح له يربوع يحرق من جانب الوادى ، فأسرع إلى قوسه فوضع فيها سهماً فرمى اليربوع قبل أن يبلغ الجانب الآخر من الوادى فصرعه فى مكانه ، وقد أصاب السهم رأسه . وأراد عند ذلك أن يجعل وداعه مرحاً فنظر إلى زوجته وضحك ضحكة عالية وقال لها : « هذا عشاء عساف يا جلييلة » .

فلم تملك جلييلة إلا أن تبسمت وصاحت به :

- حرمستك مناة !

ووقفت تنظر إليه وهو سائر وتتأمل قامته المعتدلة ، ورأسه المرفوع وخطاه الواسعة . وكان كلبه عساف يسير كما اعتاد فى آثاره يتشمم مواطئ أقدامه .

ولما بعد وأوغل بين الكثبان أسرع جلييلة خارجة إلى طرف الوادى ، وسارت تهول حتى دخلت فى شعب من شعابه وقصدت إلى بيت العرافة لتلتمس لزوجها عندها بركة إلهيها مناة وأوال .

سار كليب حتى بلغ مرعى خيله ، وكانت فى واد مجاور ، والعبيد مشتتون فى أنحائه بعضهم بتعهدون الأمهار ، وبعضهم يعلم ما شب منها ويروضها ، فنادى كليب أحدهم وأمره أن يأتى له بالرباب ، وكانت أحب خيله إليه . فأسرع العبد إليها حتى قادها إليه ، فأقبلت

الفرس تسير إلى سيدها كأنها صديق يسعى إلى صديقه ، حتى إذا قُرِبت منه جعلت تحرك رأسها وهي تصلح كأنها تبدى سرورها بقلائه ، ورفعت ذيلها ، وضربت الأرض بحوافرها . فمسح كليب رأسها وعنقها وهوي يتسم لها ، ثم وثب على ظهرها وركبها عُرْيًا ، وقد أخذ كنانة سهامه في كتفه اليسرى ، وجعل القوس في كتفه اليمنى . ولما استقر في ركوبه مسح رقبة الفرس ، وهمزها قائلاً : « هيا يا رباب » .

وكان الفرس قد فهمت خطابه فانطلقت تعدو مثل وعل برى ، وغابت براكبيها وراء ثنية الوادى ، وانطلق الكلب يجرى في أثرها يقفز فوق الحجارة ، ويحاول أن يلحق بها لاهثاً . وقضى كليب ذلك اليوم في الصيد حتى مالت الشمس نحو الغرب ثم عاد وقد حمل زوجاً من وُعول عصماء تكاد الرباب تنوء تحتها ، وقد تدلى أحدهما عن يمين وآخر عن يسار . فلما بلغ مرعى خيوله في الوادى المجاور لِمنازله أسرع إليه العبيد فوثب عن فرسه وقال ينادى الغصين :

- أين المهلهل اليوم ؟

فتردد العبد حيناً ثم قال :

- لا أظنه اليوم في منازله .

فقال كليب : احمل إليه وِعَلاً من هذين أبنا كان يا غصين .

ثم سار نحو الروضة وقال وهو لا يلتفت :

- امسحوا الرباب ثم قربوها منى عند الروضة .

ومضى نحو روضته والعبيد يسارعون إلى الفرس ليزيلوا ما علق بها من أثر الدماء . وسار الكلب كعادته يتمسح في أذيال سيده ويشم آثاره حتى بلغ كليب الروضة فسار بين شجرها الملتف وأقمى الكلب عند المدخل ينظر فيما حوله وهو يلهث .

وقضى كليب هناك ساعة يسير بين الخمائل ويتأمل زهرها وأغصانها حتى بلغ إلى خميلة القنبرة ، فوقف عندها هنيهة ، وسرت فيه هزة من الغضب ، ولكنه مضى سريعاً إلى خميلة أخرى حتى لا تُلح عليه الذكرى .

ولم يلبث أن عاد إليه الهدوء وهو يسير فوق رمال ناعمة جعد سطحها مر الريح فبدا مثل الغدير قد انداحت ^(١) عليه خطوط متراقصة من لمس النسيم ، واطمأن إلى أن حماه ما زال عزيزاً لم تستبحه اليوم قدم جريئة . فلما بلغ آخر الروضة واطمأن إلى سلامتها وأن امرأ لم يظاً

(١) انداحت : نقشت .

بقدم عليها عاد أدراجه خفيفاً حتى صار عند مدخلها فرأى عبده وفرسه . فوثب على الباب واتجه إلى منزله .

ولما بلغ آخر وادى الروضة رأى عن بعد شخصاً يسير مسرعاً وهو يخط الأرض بزج^(١) رمحه فتأمل ، فإذا به جساس ، وكان متجهاً نحو مراعى إبله فى الوادى المجاور ، فاعترته لمراه قبضة لم يتمالك منها نفسه ، ولكنه أخذ يصرف نفسه عنها ، واستعاد صورة جليلة لعلها تسُلُّ من صدره تلك الموجدة^(٢) التى كان يجاهد نفسه فى مغالبتها . وفيما هو فى ذلك سمع كلبه ينبج نباحاً شديداً ، فالتفت نحوه فإذا به يعدو مسرعاً نحو جساس فى غضب يريد أن يهجم عليه فيعقره . فهمز فرسه لكى يدرك الكلب الغاضب وصاح به ليثنيه ، ولكن الكلب اندفع فى شراسة حتى وثب على جساس ، فما أدركه حتى كان قد مزق ثوبه وأوشك أن ينهش لحمه . فوقف جساس والرمح فى يده ، يسدده إلى الكلب ولكنه عدل عن ذلك فجأة ، واتجه نحو كليب فشخص إليه ببصره حيناً لا يطرف ولا يتحرك . وخشع الكلب عندما أبصر سيده قريباً منه وسمع زجره . وكاد كليب ينطق بكلمة يزيل بها غضب صهره الحائق ، ولكن الكلمة وقفت على لسانه إذ سمع جساساً يقول له بصوت أجش :

« هلم إذا شئت فأنت أولى بهذا ! » ورفع رمحه كأنه يريد نزالاً .

فغلا الدم فى رأس كليب ووضع يده على مقبض سيفه .

ولكنه تردد بعد قليل ورفع يده ونظر إليه صامتاً لحظة ، ثم أدار عنه وجهه وقال فى مرارة :

- لقد وعدت جليلة .

ثم انصرف متجهاً إلى منزله وهو لا يكاد يرى ما أمامه من شدة غضبه المكظوم . ووقف جساس لحظة ينظر فى آثاره وهو مضطرب القلب يكاد يتمزق من الغيظ ، وقد طعنته الكلمة التى سمعها فى صميم فؤاده وزادت حقدته التهاباً .

ولما بلغ كليب ساحة بيته هب من فيها سراعاً ولكنه وثب عن فرسه وسار نحو خيمته مطرقاً . وقامت جليلة مسرعة فى لهفة تريد أن تبلغ باب الخيمة قبل أن يدخل ؛ فقد كانت تريد أن تترى به قليلاً قبل الدخول حتى يطأ خطوطاً رسمتها بدقيق عند بابها ، ولكن كليياً سار مسرعاً فلم تدركه جليلة حتى دخل إلى الخيمة بغير أن ينظر إليها . ووقفت جليلة مضطربة

(٢) الموجدة : الغضب أو الحزن .

(١) الزج : الحديدية التى فى أسفل الرمح .

الصدر تنظر نحوه وشعور الخيبة يثور بأنفاسها ، فلقد ذهبت في الصباح بعد أن خرج زوجها إلى عَرَافَة تغلب واستعانت بها أن تدبر لها من سحرها وكهانتها ما يمنع الشياطين عن ولوج بينها ، ويحفظ لها الزوج الحبيب من وثباتها . فصنعت لها العرافة دَقِيقاً تحظ به رسماً عند مدخل البيت لكي يطأه كليب إذا عاد داخلاً ، وأمرتها أن تذر منه في أركان البيت وتحت أوتاده وأن تجعل منه تحت وسادتها ، وحول فراشها لعل زوجها يصيب بخفه أو ييده منه شيئاً . فإذا فعل ذلك أمن المهالك ، وكان محروساً أينما سار وحيثما استقر .

وشردت جلييلة ببصرها نحو الخطوط المرسومة عند الباب لترى هل مسها زوجها بخفه ؟ ولكنها رأت الخطوط سليمة كما رسمتها . فعادت ببصرها إلى كليب وراعها ما على وجهه من علامات الغضب . ثم تنهت إلى أنه دخل ولم يسم لها ولم يأخذها بين ذراعيه كما عودها فقالت له في صوت العتاب :

- عمت مساء يابن العم .

فقال كليب وهو يحاول الهدوء :

- عمت مساء أينما الحبيبة !

ثم عاد إليها ففتح لها ذراعيه يريد أن يصرفها عن اضطرابه وغضبه . فألقت نفسها بين ذراعيه وقالت مترددة :

- لعلك قضيت يوماً هيناً في رياض الخزامى .

فقال وهو يلفها بيمنه ويشم شعرها بشغف :

- وأين الخزامى من عطرك ؟

ثم أرسلها وحاول أن يصرف نظره عنها . فخنست (١) في صدره وطوقته بذراعيها وقالت بصوت خافت فيه رنة الحزن :

- حمداً لمناة إذ أراك سالماً .

ثم أخذت تنشج في هدوء .

فقال يحاول صرفها عن حزنها :

- وكيف مضيت أنت اليوم يا جلييلة ؟ هل عاودك الدوار ؟

وكانت جلييلة حاملاً يعتربها دوار الوَحَم بين حين وحين فيصيبها بضيق شديد .

فقالت جلييلة :

— ما أبالي اليوم دواراً ؟

ثم تشبثت به في إصرار واستمرت تقول :

— قل لي بحق عندك . أغاضبت أحداً ؟ هل تعرض لك جساس ؟

فلم يستطع كليب أن يكذب في جوابه بعد أن ألقت إليه ذاك السؤال الصريح .

فقال : « ولكني وعدتك يا جلييلة » .

ثم سار داخلاً حتى بلغ صدر البيت فجلس على فروة قد فرشت فيه ، وذهبت جلييلة إلى ناحية أخرى من الخيمة فحملت إناء مملوءاً باللبن وأتت به فقدمته إليه وهي صامته ، ثم جلست إلى جانبه تنظر إليه في شيء من الوجوم . فشرب كليب بعض اللبن ووضع الإناء إلى جانبه وقرب جلييلة إليه وجعل يحدثها بما كان من أخيها وهي تسمع مطرقة .

ولما انتهى من وصف ما حدث من جساس نظر إليها بابتسامة مرة وقال : « ولكني مع ذلك أعفوه عنه لأنه أخوك يا جلييلة » .

فقالت جلييلة : « أنت سيد ربيعة كلها ولا يضرك نَزَق شاب مثله » .

فقال كليب : « سوف أصبر عليه حتى تغضبي لي » .

فقالت بصوت ثابت : « حاشاك أن يلحق بك ما يغضبي . ومن يظن أن في حلمك نقصاً ؟

بل من يستطيع أن يجعل جساماً لك قريناً ؟ »

قال كليب : « لقد عرفتُ العرب يا جلييلة . إنهم لا يُكبرون إلا العزيز ، ولا يجلون

إلا المنيع » .

فراَت جلييلة صدق قوله ، ولكنها آثرت أن تدارى جزعها ، وعزمت على أن تسعى مرة أخرى عند أخيها وأبيها ، لعلها تتدارك الخطب ، وتتقن تلك الكارثة التي كان قلبها يندربها . وأخذت تلاطف كليياً وتسليه ، واستطاعت بعد قليل ما تستطيعه الزوجة المحبة وحدها ، فإذا الحديث يعود إلى عذوبته ، وإذا يزورها الغاضب يرتد حبيباً رقيقاً ، يتحدث باسمها إليها واصفاً لها ما كان في يومه من مطاردة الوحش ، وصيد الوعول من قلال^(١) الصخور ، ويتغنى لها بمحاسن الرباب ، وبسالة كلبه عساف وهو يمشط بأصابعه شعرها .

فقالت جلييلة باسمه : « وأين ذهب الصيد ؟ »

(١) قلال الصخور : قممها وأعلاها .

فقال : « أهديت مهلهلاً أخى وعلا ليكون طعاماً له فى شرابه ، وأغلب ظنى أنه اليوم لاه مع أخيك همام » . وأراد أن يتم حديثه فقاطعتة قائلة :
« وأين إذا نصيبى ؟ »

فضحك وضمها إليه وقال : « أما يكفيك كليب أيتها الحبيبة ؟ »
فانحنت برأسها على صدره وهولا يزال يعبث بشعرها الأسود ، ثم همس فى أذنها يقول :
« ستجدين بعد حين عنى سلوة يا جليلة » .

فقالت جليلة فى شبه صيحة : « ومن ذا يُسَلِّينى عنك ؟ »
فضحك وقال : « ولدك الذى سيقبل بعد حين » .
فقالت وهى تحرك رأسها على صدره : « لن يزيدنى ولدى إلا حُباً » .
ثم استسلما معاً لأحلام المستقبل العذبة .



أصبح الصباح فقام كليب كعادته مبكراً يريد الخروج ، وهمت جلييلة أن تعيد عليه رجاءها أن يبقى معها في البيت كما فعلت بالأمس ، ولكنها أيقنت أنها لن تجد منه في يومها إلا مثل ما وجدت في أمسها ، فما كان سيد ربيعة ليرضى أن بطيع امرأته ويبقى في بيته من خشية قالة عرافة تُخيفه من اعتداء عدوه ، فليس في قبائل بكر أو تغلب من تُوقع عداوته الرعب في قلب ، وما كان ليتوارى من ذلك العدو لورآه أمامه بسيفه أو برمح .

فتركته يمضى بغير مراجعة ، وجعلت تكاوح ^(١) نفسها فيما تُحسُّه من الخوف وتطمئنها بأنه قد لبس التميمة السحرية ونام على الوسادة التي ذرت من تحتها الدقيق الأبيض . ولئن فاته أن يمس الخطوط المرسومة عند مدخل البيت في المساء فلعله يصيب منه في خروجه ذلك الصباح . بل إنها شعرت بشيء من الهدوء والبشر عندما تذكرت أنها قدمت لمناة القرايين من لبن وتمر ، ومن لحم وسمن ، وقربت لأوال كبشاً من غنمها أهدت ذلك إلى العرافة لترفعه إلى إلهيها . وخرجت مع زوجها إلى الباب تحاول أن تجرّه إلى الرسم السحري لعله يمسّه . فلما خرج استوقفته لتودعه ، ولكنه كان قد أسرع فلم يقف إلا بعد أن تعدى الخطوط المرسومة بالدقيق ، واضطرت هي أن تذهب إليه لتضع رأسها بين ذراعيه الممدودتين . وكانت بادية الحيرة ، تتم نظراتها عن أنها تريد أن تقول له قولاً ولا تجرؤ عليه . فقطن كليب إلى ذلك وعزاه إلى ما في قلبها من القلق عليه . وأراد أن يذهب ذلك الاضطراب عنها، فقال لها باسمًا وهويضمها : « لا تُراعى يا جلييلة ، فهذه هي تميمتك » . ثم أمسك بمثلث من الجلد تحت ثيابه . فتبسمت جلييلة وسرى عنها بعض التشرية وقالت له :

- سر إلى صيدك في حراسة الأرباب .

فقال لها وهويمسح بيده على رأسها :

-- ليس اليوم للصيد يا جلييلة ، فقد علمت أن الإبل لم تشرب منذ خمس .

فصاحت جلييلة في فزع مكتوم :

(١) تكاوح : تغالب وتقهقر .

- إذن فانت اليوم في الحى .

فتبسم وقال وهو يرسلها في رفق :

- لا تراعى يا جليلة ، فلن أتعرض لجساس . لن أتعرض له وإن تعرض هوئى .
وسار عنها حتى أخفته كئبان الوادى عن عينها .

وقضت جليلة ذلك الصباح وهى مكتئبة ، فلم تذهب إلى زيارة أحد من أهلها ،
وعاودها دوار الحمل فاستلقت على الفراش حتى يزول عنها ، وبقيت كذلك ساعات تفكر
فى أمر زوجها وأخيها . ورئت فى أذنيها أقوال جساس وهى تحدثه فى بيت أبيها : وتمثلت
لها صورته وهوى حملق فيها ثائراً ، واحتوشتها ^(١) المخاوف فكانت تارة تتصور زوجها وقد سطا
بجساس ، ثم تتصور أخاها وقد سطا بزوها ، ثم يعود إليها الهدوء حيناً فتطمئن إلى حماية
منة وأوال ، ثم ترد إلى الوسوس فتزها مرة أخرى وتضنيها .

وفى هى كذلك إذ سمعت صراخاً يتعالى من بعيد من ناحية خيام أخيها جساس ،
وكانت فى الوادى المجاور ، فذهب ظننا إلى أن مكروهاً قد أصاب شقيقها . فقامت مذعورة
ونسيت دوارها وحل الخوف على أخيها محل القلق على زوجها . وسارت تترنج حتى اعتلت
جانب الوادى تتوقل ^(٢) فى الرمال والصخور ، ثم هبطت إلى منازل جساس فرأت فى ساحتها
جمعاً . فأسرعت تهرول حتى اقتربت منه ، فرأت سعد بن شميم الجرهمى ضيف خالتها
البسوس ، واقفاً يتحدث إلى من حوله بقصته ؟

وصاحت فى لفة : « أين جساس ؟ »

فأشاروا لها نحوه ، وكان واقفاً عند خيمة خالته فى جمع مضطرب هائج قد قامت من
وسطه امرأة تصيح صيحات متقطعة تعلو على اللفظ الذى حولها . فأسرعت جليلة نحوها وقد
داخلها شىء من الاطمئنان منذ رأت أخاها حيالها . وشقت الصفوف حتى صارت إلى جوار المرأة
فإذا بها خالتها البسوس ، قد شقت ثوبها وحسرت رأسها وكانت تلطم وجهها فى هياج يشبه
الخبل : وتصيح : واذا له ! وكان جساس واقفاً ينظر نحوها صامتاً والغضب يجاير من عينه .
فاقتربت جليلة من خالتها وحاولت أن تهدئ منها فقالت لها :

- هوئى عنك يا خالة ، ماذا بك ؟

(١) احتوشها : أحاطت بها .

(٢) تتوقل : تصمد .

فلم تلتفت المرأة إليها بل استمرت تصيح وتكلم ، وهى بين حين وحين تصرخ صرخه مفزعة ترن فى الوادى قائلة : « واذلاه ! » ورأتها تختلس النظرات إلى جساس وهى تصرخ كأنها توجه لـسعاع تأنيبها إليه ، وتقول :

- ليتنى لم أنزل سعداً فى جوارى ، ليتنى بعثته إلى جوار عزيز لا يناله الذل عنده .
ليتنى لم أربوياً هذه المنازل ولم تطأ قدماى هذه الساحة ، فليس فيها من يحمى جاره ولا من يدفع عن ذماره^(١) .

وما زالت تهتف بعثل هذه الأقوال وتتجه بنظراتها إلى جساس وهو صامت مطرق بوجه أصفر كأنه يقطر السم . ولم تستطع جليلة أن تهدئ من ثورتها ولا أن تسمعها لفظاً من كلامها ، فإنها كانت تهدر وتصرخ ، لا ينقطع صوتها ولا تتردد الألفاظ على لسانها . فذهبت جليلة نحو جساس لتسأله ، ولكنه صرف وجهه عنها ، وقال فى صوت الحائق كأنه يحدث نفسه :

- لو كانت خالتي فى جوار عزيز لما هانت ولما هان ضيفها . ولو كانت فى آل أبيها منقذ لحماها بنو تميم قومها . ولكنها نزلت فى جوارى فكان الهوان ينتظرها . وهذه ناقة ضيفها ترتع والسهم فى ضرعها .

وأشار بيده نحو ناقة تجرى بين الكئيبان وهى تضطرب وتصيح صياحاً عالياً وفى ضرعها سهم مرشوق تهترين رجلها .

وتحرك جساس عند ذلك يريد أن يسير ، فأمسكت جليلة بذراعه وقالت بجفاء :

- ماذا تقول يا جساس ؟ وما معنى كل هذا ؟

فتملص جساس منها ونظر نحوها فى قسوة وقال :

- لا أقول شيئاً سوى أننى رجل ذليل الجار ، تُرمى ناقة ضيفى فى ضرعها ، ولا أملك أن أدفع عنها .

فلم ترد أن تطيل الحديث وقد أدركت ما كان . إنه - بغير شك - زوجها قد بريمينه ، ورمى الناقة الغريبة فى ضرعها عندما رآها ترد الماء مع إبل جساس .

وسمعت أخاها يقول وهو ينصرف عنها :

- لأجعلن للبسوس حديثاً تسير به الركبان .

(١) اللمار : ما ينهى حياطه والذود عنه كالأهل والعرس .

فأسرعت جليلة من ورائه حتى أدركته وأمسكت بذراعه وصاحت به :

- أى حديث تريد يا جساس ؟

فضحك جساس ضحكة مرة وقال : « لأقتلن فى ناقتى فحلا سوف يتحدث الناس عنه . سوف أقتل أسمن الفحول فى ثارناقة ضيقى » .

ثم ضحك مقهقهة ومضى مسرعاً يقصد نحو سعد بن شمس .

فشرد خيال جليلة فى كلمات أخيها . لقد عرفته لا ينطق لغواً ولا يفوت أمراً عقد عليه نيته : فما ذلك الفحل الذى سيقتله ؟ أى فحل هذا الذى يقتله جساس فى الثأر لسراب - هذه الناقة العجفاء سراب ؟ وكادت المخاوف تتجسم لها تزيد من تهويل الخيال لولا أنها صرقتها وردتها . فما كان لجساس أن يقتل إلا فحلا سمينا من إبل زوجها .

وكان لزوجها فحل ليس فى إبل العرب فحل مثله . هو الفحل « غلال » الذى كانت تضرب الأمثال بعظم هامته وعلو قامته ، وقوة هديره وشدة وطأته ، فذهب ظن جليلة إلى أن أخاها يريد أن يقتل هذا الفحل العزيز على زوجها لكى يفجعه فيه كما فجع جاره فى ناقتة الهزيلة . وتيسمت عند ذلك بسمة سخرية من أخيها الذى يسف^(١) ويدفعه حنقه وحقدته إلى مثل هذا الهراء .

ووقفت حيناً تنظر فى اشمزاز إلى خالتها الشعثاء ، وهى تصرخ صراخها المنكر فى ثيابها الممزقة ، ثم عادت أدراجها نحو بيتها ، وهى تضحك ساخرة . ولكن صرخات البسوس كانت تلاحقها وهى تنشده صائحة :

لعمري لو أصبحت فى دار منقذ لما ضيم سعد وهو جار لأبيانى
ولكننى أصبحت فى دار غربة متى يعد فيها الذئب يعدو على شائى
فيا سعد لا تفرر بنفسك وارتحل فإنك فى قوم عن الجار أموات

وذهبت إلى فراشها عقب عودتها ، فاستلقت فيه ضعيفة ، ولا تزال الوسوس تعاودها حتى أقبل زوجها عند المساء ، فدخل الخباء إليها قبل أن تنهض للقاءه . وقد سرى عنها عندما رآته باسماء مرحاً كثير الدعابة والفكاهة . فقضى معها صدر المساء فى سمر ثم قاما معاً فأصابا شيئاً من الطعام فإنها لم تذق منذ الصباح طعاماً . ثم جلس إليها يحدثها ويضحكها حتى زال عنها

(١) يسف : يطلب الدنى من الأمور .

أثر الدوار الذي ألم بها ، ولكنه لم يتكلم بشيء عن ناقة سعد بن شميمس جار البسوس ، ولم تفتاحه جلييلة بالأمر خوف أن يعرف منها ما قاله جساس .

وجاء في جوف الليل طارق يزور كليياً ؛ فانتحى معه مكاناً في جانب الخيمة ، وجعل يسأره ببعض الحديث ، ثم مضى بعد حين وعاد كليب إلى مكانه مع زوجته ، وأخذ يحدثها بذكر أيامه الماضية ومواقعه المشهورة مع قبائل اليمن منذ سنين ، ولكنه لم يذكر لها كلمة عن خالتها البسوس ، ولا عن الناقة سراب ، ولا عن أخيها جساس .

وكانت جلييلة منذ أن خرج الزائر تحب أن تستطلع من زوجها ما أسر الرجل إليه ؛ فقد خشيت أن يمشي الوشاة بينه وبين أخيها بالكذب فيزداد ما بينهما من البغضاء . ولكنها لم تجد وسيلة لفتح أبواب الحديث الذي يؤدي إلى ذلك الاستطلاع . غير أن كليياً عرض في حديثه إلى ذكر فعله غلال ، وجعل يعدد محاسنه بين الإبل ؛ فاستخلصت جلييلة من ذلك أن الزائر قد حمل إليه ما قاله جساس ، وتهديده بقتل أسمن الفحول في ثار ناقة جاره ، وتنفس الصعداء ^(١) وشاركت زوجها في مرح الحديث .

(١) تنفس الصعداء : نفثاً طويلاً من نوجع أو هم .

ماتت « سراب » ناقة سعد بن شمس الجرمي ضيف البسوس وما كان موت ناقة ليقع على قوم مثل ما وقع موت هذه الناقة على بني مرة قوم جساس . لقد حاولوا جهد طاقتهم أن يترفقوا في نزع السهم من ضرعها وأن يداووا جرحها ، وكانوا يتلهفون على سلامتها كأنها مريض عزيز يحيط العواد^(١) بفراشه .

فلما ماتت اهتز لها الناس وقضوا أياماً في وجوم يتوجسون من خوف ما قد تطالعهم به الأماسي والأصباح . ولكن الأيام مرت أسابيع بعد أسابيع ولم يحدث حدثٌ مما كانوا يخشون ؛ فأخذت المخاوف تهدأ وأخذ شبان تغلب يتفكهون فيما بينهم بتهديد جساس ؛ فقد عرف العرب أن يثأروا لرجلهم بطلب الدماء ، ولكن هذا جساس يثور لطلب دم فحول الإبل انتقاماً للنياق ! وكانوا يقولون إذا رأوا جساس بن مرة : « ما بال الركبان لا تسير بالحديث ؟ وما بال هذا التائر لا يزال يتربص بالفحول ؟ هذا هو جساس يسكن ويركد ويخشع بعد أن أظهر له كليب بن ربيعة أنه يبر بيمينه ويحقق وعيده ، ولا يبيع لأحد أن يستريح حماء . وأى امرئ يكون جساس إذا قيس بسيد ربيعة المنيع ؟ إنه تجراً واعتدى ، وكان اعتداؤه بدعة ، حتى إذا ما سطا كليب وأظهر نواجذه غضباً خشع ولزم الحدود » .

وكان جساس في أثناء هذه الأيام يسمع الخمسات التي يتفكه بها شبان تغلب فتقع في نفسه وقع السهام ، وداخله من ذلك همٌ مضم^(٢) حتى حال لونه ، وصار لا يأنس إلى أهل ولا صحاب ، فما كان أحد يراه إلا في الأطراف البعيدة الموحشة سائراً وحده ، فإذا أنس إلى أحد من الناس فما كان أنسه إلا إلى قتي ضئيل من أهون بيوت بكر وأضعفها حولا ، قتي ضعيف لم يشترك مرة فيما يشارك فيه الفتيان من لهو أو وجد ، ولم يعرف أحد له محلا في أمر تافه أو عظيم . كان هذا القتي عمرو بن الحارث البكري غريم الكلب عساف الذي عرف الناس جميعاً قصته .

كان عمرو هذا يحمل لكليب بن ربيعة صنفاً من الكراهية عجيباً . كان لا يتحمل

(١) العواد : الزوار .

(٢) المضمي : المرض أو الهزال الشديد .

أن يسمع ذكر اسمه ، فإذا سمعه اضطرب واختلج ومضى في سرعة تشبه الذعر . ولكنه كان لا ينطق بكلمة تم عن كرهه ولا يشارك في الهمسات التي يتهامس بها شبان بكر عن طفيلانه وعسفه . وقد وقع في قلبه هذا الكره العجيب منذ يوم بعيد ، إذ كان يسير على مقربة من روضة كليب بن ربيعة فنبحه الكلب عساف الواقف عند مدخلها ، وهجم عليه فزق ثيابه وعضه في فخذه فكاد ينزع نسا^(١) . فجرى الفتى في دعر خيفة أن يراه الأمير المخيف فيوقع به ، كما كان يوقع بكل من تجرأ واقترب من موضع الكلب . وأحس من ذلك ذلة طعنت قلبه ، ولكنه لم يستطع أن ينفس عنها بكلمة إلى حميم .

مند ذلك العين انقلب شعوره بالذلة حقداً يأكل القلب ، وزادت كراهته عمقاً وقوة على مر الأيام كلما تبين له عجزه عن الانتصاف من الأمير العنيف . وسماه الناس مند ذلك اليوم غريم عساف سخريةً وازدراء .

فلما وقع ما وقع بين جساس وكليب ، ورأى ذلك الفتى ما آل إليه أمر جساس من مباحدة الناس وانطوائه على نفسه ، أنس إليه فأطلعه على خبيثة نفسه ، فإنه إذا لم يستطع أن ينتقم بنفسه من الأمير العزيز قد يستطيع أن ينفس عن حقه إذا شاركه جساس بن مرة ، فهو في منعة من أبيه شيخ شيبان وإخوته وأبناء إخوته ، وكلهم من فرسان بكر الذين لا يسلمونه ولا يتخلون عنه . ولكنه كان يحاذر ويتوارى إذا أراد لقاء جساس خيفة أن يراه أحد من أتباع كليب فيثبى به إليه . ولهذا كان لا يجتمع به إلا خلصة في ظلمة الليل في أمن من الأنظار . فإذا ألم به ساعة من نهار لم يبق معه إلا إذا اطمأن على أن العيون لا تراه . فإذا رأى أحداً قريباً ترك صاحبه وذهب مسرعاً إلى بعض الشعاب .

ولما مضت الأيام بغير حدث جديد ، نسي الناس الأمر وحسبوه قد مضى ، وظنوا أن جساساً قنع بعزله وانصرف عما لا يستطيعه ، واطمأنت تغلب على رئيسها وبطلها ، واطمأنت بكر على أمنها وسلامتها ، ولم يبق من ذكر الناقة إلا فكاهة عابرة تساق للتندر في مجالس السمر . غير أن قلب جليلة كان دائم الترقب والحذر ، فقد كانت تعرف أخاها وما كان يملأ قلبه من الغيظ الذي ظهر لها مما سمعته منه ، فكانت لا تزال تخشى الغد وما يأتي به ، وتحس في قرارة نفسها شعوراً مبهماً أن أخاها إنما كان ينتظر الفرصة السانحة^(٢) والغرة^(٣) الملائمة .

(١) النسا : العصب الوركى ، وهو عصب يمتد من الورك إلى الكعب .

(٢) السانحة : السهلة البيرة .

(٣) الغرة : الغفلة .

فكانت تجلس كل ليلة في خشوع قبل نومها ، تناجي مناة وأوال وتدعوها ليحفظا لها زوجها العزيز .

وخرج كليب في صباح يوم كعاداته . وكان يقصد ذلك اليوم أن ينتزه عن الحى . فذهب إلى مرعى الخيل فركب فرسه الرباب ، وكلبه يلهث في أثره ، وسار سيراً هيناً وقلبه ممتلئ بنشوة الصباح . وكان النسيم البارد يبعث في جسمه نشاطاً وفي نفسه خفة وسروراً . وتملكه الطرب إلى الحياة ، فأخذ يغنى بملء صدره ، وبدت له الدنيا تفيض سعادة وجمالاً . ولوح في أثناء سيره شخصاً جاثماً عند ثنية من ثنايا الوادى ، فلما وقع بصر الشخص عليه أسرع ذاهباً عن طريقه ، فتبينه فإذا هو عمرو بن الحارث الفتى الضئيل الذى كان يراه أحياناً يجالس عبيده في مراعى الخيول ، فلم يكثر به ولم يحفل بوقوفه عند الثنية ، ولا بإسراعه هرباً عند مقدمه ، فلم يكن عجباً أن يسرع مثله ليعبد عن الطريق التى يسلكها سيد ربيعة .

وذهب إلى الروضة فوقف عند مدخلها حيناً يتأمل جمال منظرها ، ويملاً عينيه من اخضرار أشجارها ونجيلها ، ونضرة أعشابها وزهورها ، وقد عقد الندى قلائد مثورة على أديم الأرض الزبرجدى^(٢) ، وانتظمت حياته في أسلاك نسج العنكبوت ، فبدت كأنها درر تتلألأ في شعاع الشمس المشرقة . وفيما هو واقف بفرسه سمع كلبه ينبع نباحاً يخالطه انزعاج ، ثم سمع من خلفه وقع حوافر فرسين يقتربان . فتكبر أن ينظر وراءه ، لعلمه أن الراكبين إذا فطنا إلى وجوده أسرعاً مبتعدين ، وبقى واقفاً ينظر أمامه ويتملى بحسن روضته . ولكن وقع الحوافر أسرع وتقدم في اتجاهه ، حتى صار على قيد خطوات منه ، وعند ذلك سمع صوتاً بناديه من ورائه : « يا كليب الومح وراءك ! »

فعرف أنه صوت جساس . ولكنه لم يلتفت إليه ، وقال في لهجة ساخرة : « إذا صدقت فأقبل من أمامي » .

وما كان كليب ينتهى من كلامه حتى أحس طعنة شديدة في ظهره ، فارتمى عن فرسه ، ووقع على الأرض يتشطح^(٣) في دماائه . ورنث في أذنيه صيحات عالية وحشية ، ونزل جساس مسرعاً عن فرسه واقترب منه مكشراً كابن آوى إذا وجد جيفة . فنظر إليه كليب نظرة تمثل فيها معنى الاحتقار والحق ، واختلط فيها شعور الغيظ والضعف ،

(٢) الزبرجد . حجر كريم أخضر .

(١) أديم الأرض : ظاهرها .

(٣) يتشطح : يضطرب ويتعبط .

وهم أن يقوم إليه فلم يقو على النهوض ، ففحص^(١) الأرض بقدميه وتقلب في دماثه ، وما هي إلا لحظة حتى لحقه دوار التزيف ، واعتزته عشية الموت .

وأقبل عليه جساس ينزع الرمح من ظهره وهو يخفضه في قسوة ويقول له : « ذق الموت أيها الطاغية » .

وفهق كليب فهقات ألم ثم غشى عليه . وكان يفيق من غشيته إفاقة قصيرة ، فيحاول أن يتكلم فلا يستطيع ، إلا تتممة خافتة لا تسمع ألفاظها . ثم اعتراه عطش شديد فقال وهو لا يدري من يخاطب : « أغثنى بشربة ماء » .

ولكن جساساً نظراً إليه ، ثم ضحك ضحكة مخيفة وقال في صرخة جشاء^(٢) : « لا ابتل لك ريق أيها الطاغية ! » ووقف يتأمل نزعته في سرور .

وكان عمرو بن الحارث في تلك الأثناء واقفاً وراء جساس وهو يرتعد ، وقد علت صفرة تشبه الموت . فلما سكن كليب أشار إليه جساس أن يتقدم فأنى إليه متردداً ، فطلب منه أن يساعده على تغطية القتل بالحجارة حتى لا تأكله السباع .

ولما أتما وضع الأحجار عليه ركبا عائدين نحو مضارب الخيام ، ولكن عمرو بن الحارث لم يجرؤ على أن يواجه قومه بخبر الجريمة ، فركض فرسه لا يلوى على شيء حتى دخل بيته ، فقبع فيه وهو يتفصد عرقاً ويهذى هذيان المحموم . وركب جساس فرسه وركض نحو خيمة أبيه مرة ليحمل إليه النبا المشوم ، ولكنه لم يملك نفسه في ركوبه فبدت ساقاه عاريتين وهو لا ينتبه إليهما مما اعتراه من الذهول .

وكان الشيخ مرة جالساً في فناء بيته مع بعض بنيه وحفدته وبعض إخوته وأبناء عمومته ، فرأى جساساً يقبل على فرسه راكضاً عارى الركبتين ، فالتفت إلى من حوله وقال في فرع : « ما رأيت جساساً يركب كما أراه اليوم » .

ثم صاح بابه وقد صار على مسمع منه : « ما بك يا جساس ؟ » فقال جساس في صرخة مفزعة : « لقد طعنته طعنة يجتمع لها بنو وائل غداً رقصاً » .

فقال مرة وقد قام مذعوراً : « ومن قتلت وبلك ؟ »

فقال جساس في وحشية : « قتلت كليياً ! »

(١) فحص : حفر .

(٢) الجش : صوت غليظ فيه بحة .

ثم رفع رمحه فوق رأسه وجعل يلوح به في الفضاء ، وقال في ضحكة جنونية : « وأدركت
ثأر البسوس » .

فصاح أبوه وهو يرفع يده كأنه يريد أن يضرب :

- أكلب في ثأرناقة ؟

فقال جساس وهو يلوح برمحه فوق رأسه :

- أنا ابن مرة . أنا جساس ! لست ممن يُخفّر (١) جواره .

فأجبه إليه الشيخ وأخذ حفنة من الرمل فرماها بها في وجهه وقال صارخاً : « ويل لك
من مشثوم منكود ! ماذا جلبت على قومك من الهلاك ؟ اذهب عني فلست من أهلي . واذهب
عني فلقد سللت نفسي من جريرتك ! »

فرفع جساس رمحه وهزه ، وجعل يرقص في سرجه كأنه يتغنى وهو يقول : « فرع الشيخ
من خوف القتال ! »

ثم نزل عن فرسه واقترب من أبيه قائلاً : « دعني أباها الشيخ وحدي . لست أريد حمايتك ،
فقد عرفت أنك لا تجرؤ على الدفاع عني » .

فانتفض الشيخ في غضب ، ونظر نحو ابنه المخبول لحظة وهو حائر ، واستغلق عليه
التفكير والقول فلم يجب بكلمة ، بل وقف مشدوهاً ينظر إلى من حوله في اضطراب وقد وقع
رداؤه عن كتفيه ، وسقطت عصاه من يده المرتعدة ، وصاح بعد حين بصوته المختنق :

- أين همام ؟

وكان أبناؤه وحفدته قد هبوا جميعاً ، فوقفوا حوله في حيرة ودهشة ، وتقدموا نحوه يرفع
بعضهم الرءاء ليغطي به كتفيه ، ويمد آخريده بالعصا إليه وهم سكوت من الجزع والحزن .

فصاح بهم الشيخ في حنق :

- أين همام ؟ أهو اليوم في لهو ؟ أين هو ؟ اذهبوا إليه فليجئ !

وكان في ثورة نفسه يتحرك في اضطراب ، ويتردد متجهاً إلى جهة ثم يتردد عائداً إلى
أخرى ثم وقع نظره على شيخ كان جالساً في جواره ، فرآه جالساً لا يتحرك في مكانه ، فد
مرة إليه يديه كأنه يستنجد به في حيرته . فقام إليه الرجل متباطئاً ، ثم قبض على ذراعه
وانتهى معه جانباً . فلما صار الرجلان بحيث لا يسمع أحد حديثهما قال مرة وهو لا يكاد

(١) يخفّر جواره : ينقض مهد جاره أو يفسده .



بين : « ماذا ترى يا أبا عامر ؟ »

فقال أبو عامر في هدوء : « أترى تقدر على إعادة كليب ؟ أيعود الأموات إلى الحياة ؟ »
فنظر مرة إليه مبهوراً ولم ينطق بلفظ ، فاستمر الشيخ في كلامه هادئاً : « لقد كان
ما كان ، ولم يبق إلا النظر فيما يكون وأنت إذا تماديت في لوم جساس خذلت بني بكر وبني
شيبان إذا احتجت يوماً إلى نصرتهم » .

فهذا مرة قليلاً وقال : « وماذا ترى يا أبا عامر فداؤك نفسى ؟ » قال أبو عامر : « إن
تغلب لا بد غاضبون ولن يقعدوا عن طلب الثأر منك وإن تبرأت من جريرة ولدك . فدع
اللوم والجزع وأظهر للقوم شدة ؛ فإن ذلك أدعى أن يقتصدوا في طلب الثأر . وذم^(١) بني بكر
وحرضهم على القيام لنصرة جساس » .

وسكن الرجل قليلاً ، ثم نظر إلى الشيخ مرة وقال له هامساً : « يا أبا هامم . أما إنها
لطعنة حرأى ! أما تذكر كيف كان كليب يسومنا الذل ونحن لا نستطيع أن نرفع نحوه
عيوننا » .

فانتفض مرة ، ومد يده مسرعاً فأمسك بذراع أبي عامر ، وتلفت حوله حذراً ، ثم قال
هامساً : « أوترضى يا أبا عامر ؟ »
فقال الرجل :

« أما بحق الآلهة جميعاً ، لقد وددت أن طعنة جساس قد مدت بها رماح بكر كلها .
كان كليب طاغية يحمى المراعى ويمنع الماء أن نرده ، ويبالغ في طغيانه ، فيجعل كلبه
يأمر ساداتنا ، وما كان أحد يستطيع أن يرد عليه لفظاً » .

فتنفس الشيخ مرة ، وقال ولا يزال صوته هامساً :

- ولكنها الحرب يا أبا عامر ! هي الحرب الطاحنة والبلاء العظيم .

فقال أبو عامر :

- أراك سكنت إلى الدعة يا أبا هامم ! وماذا تخشى من الحرب وأنت فارس بكر العتيق ؟
هل تسلس^(٢) ربيعة القيادة لمن يكره حر الجلال^(٣) ؟

(١) ذم : حث وحرص .

(٢) تسلس : تلين ويسهل قيادتها .

(٣) حر الجلال : شدة الصبر على المكاره .

فسكت الشيخ لحظة يفكر فيما يقوله صاحبه ، واستمر أبو عامر يقول :
 - وما فضل تغلب على بكر حتى يستأثروا دون بني عمهم بهذا الأمر ؟ أفتنت يا مرة بأن
 تكون صهر العزيز ؟ أفتنت يا شيخ بكر بما يلقيه إليك بنو أيك من فضلات عزمهم ؟
 فصر الشيخ على أضراسه ، ثم سحب صاحبه من ذراعه وعاد نحو ولده وكان أهدأ عند
 ذلك قولاً .

ولما صار عند الجمع المنتظر ، قال بخاطب ولده : « نحن للحرب يا ولدى ! أنت منا ولن
 نسلمك بكر أبداً . لست أسلمك حتى أقتل دونك مع قومي أو نشعلها ناراً حامية على قوم
 الطاغية الظالم » .
 فلما سمع بنو شيان قول شيخهم مرة اهتزوا وعادت إليهم نفوسهم ، وتصايحوا : « يا لبكر !
 قتل الطاغية ! »

واندفع جساس عند ذلك إلى أبيه فعانقه وقبل يديه وقال في خضوع وصوته يكاد يحنق
 من التأثر : « لا عدمتك ناصرأ يا أبي ! »
 ثم أخذ رمحه وهزه فوق رأسه وجعل يرقص رقصة التحدى والاعتداد بالنفس ، ويتغنى
 بأناشيد يدعوفها قومه إلى حرب الطغاة .

وصاح مرة في قومه وقد تبدلت لهجته ، فقال : « يا بني شيان ، سأضرب بأطراف العوالى (١)
 وأننى الذل عن قومي وشرقى ، فما كانت بكر لترضى أن يخفر جوارها أو تستكين لطاغية يذها » .
 فقال أبو عامر : « يا بني شيان ، من يكون للحرب إذا لم تكونوا فرسانها ؟ »
 فتصاعدت صيحات من القوم : « سنسل السيوف وندفع الظلم ! لقد هلك الطاغية !
 سندفع البغى ، ونحمى قومنا من العار » .

وأسرع الجميع إلى بيوتهم يذيعون النبأ الخطير ، واختلى « مرة » وأبو عامر ساعة ، ثم بعثا
 الرسل إلى قومهم في شعاب الأودية بالاستعداد للرحيل . فقد علما أنه لم يكن لشيان بعد مقام
 في جوار تغلب ، وأنه لا بد لهم من انتظار الغد وما يأتي به من الأحداث .

(١) العالبة : النصف الذى يلى السنان من القناة ، والجمع عوال .

كان همام بن مرة مختلياً بصديقه المهلهل عدى بن ربيعة كعادتهما يشربان الخمر عند ربوتهما المختارة في عزلة من قومهما . وجلسا يلعبان الترد^(١) وهما يرشقان الشراب ، وانتهى الدست ، وكان المهلهل غالباً ، فد يده إلى كأسه مرتاحاً ورفعها فنظر فيها إلى الخمر المصفاة وجعل يشمها في شغف ، ثم رفعها إلى فمه وهويضحك ضحكة ماجنة ، وقال ناظراً إلى صاحبه :

- أبشرى يا أرامل ربيعة ! إنها جزور من خير مال همام بن مرة .
- فرفع همام كأسه ليشرب منها ، وقال وهويحبب بضحكة مثل ضحكة صاحبه :
- ما كانت أموال همام بن مرة لتباح إلا للأرامل !
- ثم وضع الكأس وقال للمهلهل :
- دست آخر إذا شئت أن تطعم سائر أرامل تغلب .
- وكان المهلهل قد شرب كأسه في جرعة ، فقال وهومعص شفتيه :
- مهلا يا همام ! فإن حظى اليوم بالغ .
- ووضع الكأس ، وأخذ الترد في يده فضرب به ولعب لعبته فإذا بالترد يواتيه بلعبة بارعة ، فصاح صيحة فرح ولعب اللعبة وهويقول :
- لئن طال بنا المجلس لم أدع لك يا همام مالا .
- فقال همام وهويضحك :
- أرى الحظ يواتيك يا عدى منذ اليوم .
- ثم رمى الترد فخرج له أقل وجوهه غناء . فضحك الصاحبان معاً ، ورفعاً كأسيهما فرشفا
- منهما ، ثم لعب همام لعبته وقال :
- أرى السعد لك خدناً^(٢) يا عدى . يواتيك في لعبك كما يواتيك في حبك .

(١) الترد : لعبة ذات صندوق وحجارة وقصين تعرف عند العامة بـ (الطاولة) .

(٢) خدناً : صديقاً .

هل رضيت عنك سلمى ؟

فرمى المهلهل الرد وهو يقول :

- ما أبألى إذا هي لم ترض عني .

ونظر الصديقان إلى الرد فإذا به لعبة بارعة . فضحكا معاً ولعب المهلهل لعبته وهو يقول :

- أما قلت لك إننى لن أدع لك مالا ؟ أبشرى يا أرامل بكر وتغلب بجزور أخرى

من أموال همام !

واستمر الصاحبان يلعبان ويشربان حتى مالت الشمس للمغيب . وكان المهلهل فى كل

مرة غالباً حتى قمر^(١) صاحبه بعشر جزر من ماله ينحرها لأرامل بكر وتغلب . ثم جلسا

يتناشدان آخر ما قيل فى قبائل العرب من شعر ، وجعل المهلهل ينشد صاحبه بعض ما قاله من

الغزل فى صويحباتهما اللاتى كن حيناً يرضين عنهما ويشاركنهما مجالس المجون ، وحيناً

يغاضبنهما ولا يحضرن مجلسهما . وفيما كان المهلهل ينشد بعض شعره رأى صاحبه يلتفت إلى

ناحية من الوادى وينظر إليها فى اهتمام . فقال ضاحكاً :

- أراك فاتراً عن سماع الشعر يا همام ، كأن شعرى لا يعجبك .

فلم يجبه همام إذ كان منصرفاً بنظره إلى أسفل الوادى ؛ فالتفت المهلهل ومد عنقه ليرى

أين ينظر صاحبه ، وقاله له فى مجون :

- هل أقبلت سلمى ؟

ولكن هماماً لم يجبه ، بل قام من مجلسه وسار هابطاً إلى الوادى الذى تحتها ، فاتبعه

المهلهل ببصره فرأى جارية تقود فرساً وتشير إليه تستعجله أن يذهب إليها .

فقعد المهلهل ينتظر عودته وملاً لنفسه كأساً وأخذ يتغنى وحده بشعره حتى رجع صاحبه

وهو ممتقع^(٢) اللون مضطرب ، يكاد يتعثر فى خطاه ، فقال له المهلهل ضاحكاً :

- ماذا حملت إليك الجارية ؟ أهو موعد جديد ؟

فقال همام متردداً وهو يحاول الابتسام :

- هات لى كأساً .

(١) قمر صاحبه : غلبه فى لعب القمار .

(٢) ممتقع : متغير لحزن أو فرح .

وكان الصديقان قد تعاهدا على الصدق لا ينكر أحدهما من صاحبه حديثاً ، فقال له المهلهل معاتباً :

- أراك تكتم عني سرّك يا همام .

فقال همام مرتبكاً :

- أما إنه لقول لا أصدقه .

فقال المهلهل ضاحكاً :

- لعلها تنبتك بغدر سلمى ؟

فقال همام في وجوم :

- لا أبالي اليوم سلمى !

وكان المهلهل سادراً^(١) في الخلاعة لا ينصرف عن أحاديث الخمر والنساء ، فقال :

- إذن فهي مى أو أميمة .

فقال همام متكلفاً الابتسام :

- أى زيرأنت يا عدى !

فضحك المهلهل من قوله . فما كان أحب إليه أن يلقب بهذا اللفظ الماجن الذى سماء به أخوه الحبيب كليب بن ربيعة . لقد سماه زير النساء ، فتلقف الناس عنه ذلك الاسم ، فما كانوا يذكرون المهلهل إلا به ، ولكن المهلهل كان يحب أن يسمع اللقب الذى اختاره له الشقيق العزيز على ما به من تعنيف ولوم . وماذا عليه أن يسميه الناس زيراً ؟ فهذا أعذر له أن يسدر في غوايته ، وأحرى بأن يحمل الناس على تركه لنسائه وخمره ، ولا بأس عليه منه إذا كان هوى فوز بالذات . فقال لصاحبه :

- دع ذكر هذا ، فأنت أولى بهذا الاسم منى . ولكن ماذا قالت لك الجارية ؟

فلم يكن لهما بد من أن يصدق صاحبه ، فقال جاداً :

- لقد زعمت الجارية أن جساساً قتل كليياً .

فضحك المهلهل ضحكة عالية ، وقال وهو مملأ كأسين :

(١) سادراً : غارقاً لا يبالي بما يصنع .

- أما إنها لفكاهة من جارية لكاع^(١) ، إن جساماً لا يقوى على أن ينظر إلى ظهر كليب بن ربيعة . خذ هذه الكأس .

فتناول همام الكأس وشرب منها قليلاً ، ونظر إلى صديقه وهو يرفع كأسه ويتجرعها ، وشعر كأن حملاً ثقيلاً يتزاح عن عاتقه . وقال له مداعباً :

- أترى لو صدقت الجارية ، أكنت ناثراً بأخيك ؟

فتجههم وجه المهلهل وقال متلعثماً :

- وحق مناة ليس له من كفاء إلا أنت .

فقال همام :

- أتحب أن تراني قتيلاً يا عدى ؟

فتقبضت عضلات وجه المهلهل . وبرقت عيناه ، وهز رأسه في عنف وقال :

- والله ما أدرى أيكما أحب إلى يا همام ؟ دع هذا الحديث فليست أحبه .

فتنفس همام في حزن ، ونظر إلى صاحبه وقد مال رأسه واختلت حركته ، حتى صار لا يستوى من السكر ، وكان الليل قد أقبل ، وهبط على الوادى الظلام ، فنظر همام حوله وقال :

- أحس بالتعب يا عدى ، والليلة مظلمة .

فقام المهلهل وهو يترنح ، وأسندته صاحبه من ذراعه حتى ركب فرسه عائداً إلى منزله ، ومضى همام إلى الفرس التي أتت بها الجارية وسار مع صاحبه حتى ثنية الوادى التي تفرق عندها الطريق إلى منزلبيها ، فودعه ضاحكاً ، وأسرع إلى مضارب قومه ، فرآها خالية وقد ارتحلوا عنها كما قالت له الجارية . فهمز جواده وانطلق في أثر قومه وهو يلتفت بين حين وحين إلى ورائه في الظلام لعله يرى ضوء نار يملأ به عينيه من الديار العزيزة التي شهدت ملذاته ووثبات لوه مع صديقه الخليل عدى بن ربيعة .

ولما بلغ المهلهل منزله طالعه ضجة من قبلها . فدار به رأسه المخمور وخيل إليه أن الضباب يغطي ناظريه ، ثم رأى أمامه النساء يندبن ويبكين ويشققن ملابسهن ويلطمئن خدودهن . فعجب وحار كأنه في حلم مزعج ونزل عن فرسه يسألن عما أصابهن في لسان معوج ، فكان لا يسمع إلا صياحاً أوسباباً . ثم رأى الرجال يضطربون في الظلام ويتنادون في فرع . وقد أقبل

(١) لكاع : تقال في سب المرأة بالحق .

بعضهم على سلاحه يكسره ، وبعضهم على خيله يعقرها ، فكان ذلك كله عجباً من أمرهم لم يفهم منه شيئاً إلا أن يكون الخيل قد أصابهم . ومرت في خياله الفاتر صورة كليب ، وتذكر قول همام إذ قال له حديث الجارية : وساءل نفسه : أيكون جساس قد قتل كليباً ؟ أليس هذا الذى يراه بعض أحلام الخمر وساوسها ؟

واقرب من الناس يريد أن يسألهم ، فجعلوا ينظرون إليه في ازدراء ثم يصرفون عنه وجوههم ، وسمع قائلاً منهم يقول :

- لم يبق لنا إلا هذا السكير الماجن ، الذى لا يكاد يفيق .

ومضى في سيره حتى بلغ ساحة بيته ، فصاح بمن هناك وقد عاد إليه بعض وعيه :

- ما بالكم تكسرون السلاح ؟

فأسرعت إليه امرأته وصاحت به وهى حائقة :

- قتلوا كليباً وأنت منصرف إلى شرابك ولهوك !

فنظر إليها المهلهل في غضب ، وقد وخزته كلماتها وثار الدم في رأسه حتى ذهب عنه أثر

الخمر ، وقال لامراته :

- ماذا تقولين يا امرأة ؟ لقد كذب من يقول .

ورفع رأسه . واعتدل في وقفته ، وتغير لون وجهه ، فصاح به القوم في غضب :

- قتل المنيع العزيز ، فكأن حيث شئت . كن حيث شئت فانراك تبالى .

فارتد وجه المهلهل ، ونظر إلى قومه غاضباً ، واكتسى مظهره عزماً لم يعده فيه أحد ،

وقال كأنه يفيق من حلم : « قتل كليب ؟ »

ثم ذهب إلى جانب من الفناء ، فجلس على صخرة ووضع ذقنه على يده ، وجعل

ينظر إلى القوم حيناً ، وهم في شغل عنه بما هم فيه من اضطراب وجزع ، يكسرون السيوف

والرماح ، ويتصايحون لكى يبعثوا إلى الخيل ينحرونها . فاشتعل قلبه غضباً ، ودبت فيه ثورة

عجيبة أحس نفسه تجيش بها ، فوثب من مقعده ، وصاح صيحة ترددت أصدائها في الليل

المظلم :

- أيها الحمقى ! ماذا تفعلون ؟

فنظر إليه القوم في عجب ، ورأوه يتجه إليهم عنيفاً ، فوقفوا ينظرون ماذا يريد منهم ذلك

السكير ، ووقف رافعاً رأسه وعيناه تلمعان ، وضوء النيران الملتبهة تتلاعب على وجهه المربد ،

وقال لهم بصوت أجش :

- إنكم تسبونني منذ الليلة ، وما أنتم إلا كبعض النساء . أراكم تكسرون السلاح وتقتلون الخيل ، وأنتم الآن أحوج ما تكونون إليهما .

فنظر إليه الرجال لحظة لا يصدقون آذانهم إذ يسمعون . أهذا المهلهل الذي يكلمهم ؟ واستمر المهلهل فقال :

- دعوا الحزن للنساء ، دعوهن يشققن الثياب ويصبغن الوجوه ، ويصرخن ويبكين . أما أنتم ، فاتخذوا السيوف . وأعدوا الخيل ، وقوموا الرماح . دونكم الحرب . فاستعدوا لحرب ضروس^(١) .

ثم ترك الناس وقوفاً ، وذهب عنهم صامتاً مطرقاً ، يعلو شئ من الحق وشئ من الخزي . حتى إذا ما صار في بيته ارتعى في ركن وجعل يبكي وحده . ويتمثل ما هو فاعل إذا أصبح الصباح .

واجتمع نساء تغلب في تلك الليلة للنواح في بيت سيد ربيعة ، وعلا صراخهن حتى ترددت أصداؤه في جوانب الشعاب .

وكان في وسطهن امرأة طويلة القامة ، سمراء اللون ، هيفاء^(٢) دعجاء^(٣) قد شققت ثيابها ، ونشرت شعرها الأسود الطويل ، وعفرت وجهها الجميل ، وكانت تحتلج وتهتز من شدة البكاء . وكان النساء يشرن إليها ويتهاوسن بين صرخاتهن :

- هذه جلييلة بنت مرة سبب البلاء . إنما هو أخوها جساس وقومها الجناة .

وهاجت إحداهن ، فصاحت في عويلها وهي تنظر نحوها :

- ما مقام الأعداء بين ظهرانينا ؟

فنظرت جلييلة بعينها المحمرتين ، وقالت بين شبهاتها :

- إنما أنا المفجوعة المكلومة .

فصاحت بها أخرى في مرارة :

- إنما أنت وقومك سبب البلية . اخرجي عنا أيتها البكرية .

(١) ضروس : شديدة مهلكة .

(٢) هيفاء : دقيقة الخصر ضامرة البطن .

(٣) دعجاء : شديدة سواد العين مع سعتها

ثم تعالى الصراخ والسباب من جوانب الفناء .

فقالت جليلة وهى تنشج بالبكاء :

- علم الله ما أقامى وما ألاقى ! إنما المصاب مصابى .

فعلت الضجة مرة أخرى وانهاالت عليها قذائف السباب :

- إنما أنت شامة ! إنما أنت عدوة ! ابعدى عن منازلنا ! لا بقيت بيننا !

فقامت جليلة غاضبة ، وقالت وهى لا تزال تحتلج وتضطرب :

- كيف أبعد عن مناحة زوجى ؟ إننى صاحبه ، وأنا التى فجعت فيه . وهذا الجنين

الذى فى أحشائى يتفجع معى فى مصابه . ولئن كان مصابكم واحداً فصابى مضاعف : هذا

زوجى قتل . وهذا أخى مطلوب بدمه . فنواحكن مصانعة وبجاملة ونواحى تفجع وتوجع .

بعض نفسى يبكى على بعض ، وبعض دمنى يثور ببعض ، ولو شئت لسرت مع قومى ،

ولكنى آثرت البقاء فى تغلب ، حينئذ إلى قوم صاحبى ، حتى لا يولد هذا الجنين بين قومى

فيكون فيهم غريباً عدواً .

فضج النساء ، وزاد اضطرابهن ، وجعلن يشتمن جليلة ويطردها ، وأقبل بعضهن نحوها

يردن إخراجها دفعاً والإيقاع بها . فلم تستطع إلا أن تخرج ، ولا تكاد تنظر طريقها وقد حبس

الحزن لسانها . وأسرع عبدها فأعد لها مطية . وسارت حتى ركبت فى طريقها ، وانطلقت تتبع

آثار قومها وهى تقول : « واحرقلباه ! قتل الحبيب ، وقاتله أخى ! تعساً لمناة ، وويلاً لأول » .

ثم جعلت تشند ، والدمع يشرقها :

فَعَلْ جَسَاسٌ عَلَى وَجْدَى بِهِ قَاطِعُ ظَهْرَى وَمُذْنُ أَجَلَى

يَا قَتِيلَا قَوْضَ الدَّهْرِ بِهِ سَقَفُ بَيْتَى جَمِيعاً مَنْ عَلَى

هَدَمَ الْبَيْتَ الَّذِى اسْتَحْدَثَهُ وَانْتَنَى فِي هَدْمِ بَيْتَى الْأَوَّلِ

خَصَنَى قَتَلَ كَلِيبَ بِلْظَى مِنْ وَرَائِى وَلِظَى مُسْتَقْبَلِ

بَشَنَى الْمَدْرَكَ بِالثَّأْرِ وَفِي دَرَكِى ثَأْرَى تُكَلُّ الشُّكْلَ

وكاد الحزن يذهب عنها لبها ، وهى سائرة وحدها تطلب آثار قومها ، ولا يصاحبها فى ظلام

الليل إلا عبدها بقود ناقتها .

وأصبح الصباح عليها وقد أدركت القوم ، وسارت معهم فى غمرة من حزنها . وحث

الركب المطى يطلبون أرض اليمن ليمتنعوا بها ، ويعتصموا فى جبالها من تغلب قوم كليب .

اجتمع بنو تغلب في ناديم ، وقد أقبل الليل وأخذ البرد يشتد ويقسو . وكانت النيران الموقدة في وسط القضاء ترسل ضوءها على الوجوه ، وتتلعب فوقها في خفوت ، وتمتزج بالظلال فتبدو الملامح فيها غامضة مبهم . وكانت ظلال الأشخاص تراقص على جوانب الكتيبان المحيطة بالقضاء ، كأنها أشباح متحركة من الجان ، تخلع على المجتمع رهبة شاملة . وكان القوم في اجتماعهم قلقين لا يستقر بهم حديث ، ولا ينظمهم رأى ، بل كانوا متفرقين في حلقات متباعدة ، وقد مالت كل جماعة إلى ناحية تتناجى في خيرة وحق ، وتب فيهم بين حين وآخر عاصفة من الهياج ، فيعلو ضجيجهم ويحتدم جلهم ثم يعودون بعد حين إلى التناجى القلق الحائق ، والمحاورة المضطربة .

كانوا في ذلك الاجتماع ينتظرون عودة رسلهم الذين ذهبوا وراء بني بكر ليفاوضهم في تدارك الأمر ومداواة الجرح الذي أصابهم بقتل كليب ، قبل أن يسيروا إليهم بطلب الثأر . وكان يظهر من حديثهم المضطرب أنهم لم يكونوا متفقين على رأى ، ولا متحدين في غاية ، فكانت فيهم طائفة غير راضية بالانتظار ، تنكر إرسال الوفد لمفاوضة العدو وتأتى إلا المبادرة إلى القتال في طلب الثأر ، لا ترضى بهودة ولا مسالة ؛ على حين كانت طائفة أخرى تشفق من الحرب وويلاتها ، وتنادى بالأناة والصبر ، مؤملة أن ينزل بنو عمهم البكريون على حكم العدل والإنصاف ، فيجيبوا إلى ترضية شريفة تطمئن لها أنفسهم ، وتقنع بها كرامتهم .

وكانت هذه الطائفة تظهر في جدالها الحائق أنها لا تريد العرب أنفة من زعامة ذلك السكير الماخن ، عدى بن ربيعة (المهلل) ، ذلك الذى عرفته تغلب كلها ، لا يقطع يومه إلا على نوم من أثر الخمر والنساء ، ولا يقطع ليله إلا على مجلس للخمر والنساء . فهل كان مثل هذا الخليع ليخلف كلياً على زعامتهم ؟ وهل كانوا ليلقوا قيادهم إلى ذلك الشاب المعجب بجماله ، التباه في نعيمه ، الذى لا يحسن إلا المناغاة والتغنى ، والذى جعل وكده ^(١) المنادمة والغزل ؟ هل كانوا ليأتمنوا مثل ذلك الشاب الداعر على عز تغلب ومجدها ؟

وكان في صدر النادى فارس تغلب « أبو نورية » ، يجلس محتبياً بسيفه ، وتكاد لحيته السوداء تلمس ركبتيه وهو مطرق لا يلتفت إلى من كانوا حوله ، وكان ضوء النار الملهبة

(١) وكده : قصده ومه .

يقع على وجهه فتظهر فيه أخايدده وندوبه سوداء تكاد تملأ صفحته ؛ وكان يسمع ما يتقاذف به الشبان والشيوخ من عبارات المجادلة ، وهو يتغطرش^(١) فلا يدخل في شيء من أحاديثهم الحانقة .

كان أبو نويرة يفكر عند ذلك حزينا فمأ يؤول إليه أمور تغلب إذا هي تعجلت الحرب ، فإنه لم يكن إلا أبا عشيرة بين العشائر ، لا يستطيع أن يقود عشيرته إلى الحرب وحدها ، وقد علم أن تغلب قد انفرط عقدها فلا تستطيع أن تجتمع على واحد من فرسانها ، ولم يجد حوله في شبان تغلب أو كهوطا ، من يستطيع أن يلم الشمل حوله ويقود قومه جميعاً إلى النصر .

كانت تغلب قد استنامت^(٢) إلى بطولة أميرها وسيدها كليب بن ربيعة الذي فجعوا فيه منذ يوم ، وكان كليب مستأثراً بالزعامة والقيادة والبطولة ، فلم يدع لغيره مجالا إلى جواره . كانت تغلب كلها رعية له تطيعه إذا أمر ، وتسير وراءه إذا سار ، وتتجه معه حيثما أشار . فلم ينبغ فيهم من تعود الأمر والقيادة ، ولم يعتد الناس أن يلتفتوا حول أحد من رؤسائهم . إذ كان كليب لا يدع لأحد منهم رياسة ولا سلطاناً ولا جاهاً . كان يستأثر بالسلطان كله في غيرة ، فلا يرى أحداً من فرسان قومه يرفع رأسه إلى زعامة حتى يبطش به وبذله وينزع منه كل مطمع فيها . فلم يكن في عشيرة كليب من هو جدير بأن يقود الناس في تلك الأزمنة الشديدة ، لم يكن له ولد ، ولم يكن في إخوته من يستطيع أن يسد مسده ؛ فهذا هو أخوه عدى المهلهل ، لا يقطع أيامه ولياليه إلا على مواعيد في مجالس اللهو والشراب . وماذا يستطيع مثل المهلهل الماخن أن يصنع إذا الحرب شمردت عن ساقها ، وفتحت أفواه الموت لفرسانها ؟ كان أبو نويرة يفكر حزينا في مصير تغلب . وما كان له أن يسارع إلى حرب لم يكن قومه مستعدين لها . وكان يرى أن الحرب إذا وقعت لم تلبث أن تكشف عن تغلب سر العز الزائف الذي أسبله عليها بطلها . كان الحزن يأخذ على أبي نويرة أسباب التفكير وهو جالس في صدر النادى ينتظر عودة الرسل الذين ذهبوا لمفاوضة بني بكر في مصالحة بني عمهم وإرضائهم من قتل سيدهم .

وكان كلما سمع ضجة الشبان ومبايهم وثورة مجادلتهم تحرك في موضعه مثالما ، ولكنه كان يحاذر أن ينطق بحرف خوف أن تنفجر حفيظتهم^(٣) فيجرهم المهلهل معه إلى الحرب

(١) يتغطرش : يتعاطى ويتجاهل .

(٢) استنامت : استقرت .

(٣) حفيظتهم : غضبهم وحبيبتهم .

في رعونة^(١)، وهم لا يدركون ما يدركه ، ولا يعرفون ما يعرفه . لقد عركته^(٢) الحوادث في حياته وحلب^(٣) الدهر أشطره ، وجرب من الأمور ما لم يجرب هؤلاء الأغرار^(٤) - ذلك المهلهل الماجن وشبان الذين معه - هؤلاء الألى يتحرقون إلى خوص الحرب قبل استعار هيبها ، حتى إذا ما أوقدوا نيرانها ، كانوا أسرع الناس إلى الجزع منها .

ولكنه لم يقدر على أن يبقى على صمته طويلا ، فإن الجدال بين الشبان والشيخ قد حمى وأوشك أن يصير إلى نضال وعراك ، ولم يطق المهلهل البقاء في النادي ، فخرج إلى الفضاء ينتظر عودة الرسل في قلق ، وتبعه بعض أصحابه من شباب القوم وهم يسخطون ويسخرون ، ثم نهض شاب يريد أن يتبع المهلهل فقال في تهكم :

- ماذا تنتظرون هنا أيها القوم ؟ إن الوفد الذي بعثناه لكي يركع عند قدمي بكر سائلا أن يمنوا علينا بالصلح ، لم يعد إلينا منذ ثلاث . فلنذهب إلى بيوتنا . فما نحن بأهل للحروب ؟ فتحرك أبو نيرة قلقاً ، وحاول أن يمسك عن الجواب ولكن قام بعده شبان يريدون الخروج وراء المهلهل ، وأوشك الجمع أن ينفض من حول أبي نيرة .

فأشار إليهم بيده أن يترثوا ، ثم قام يتكلم فقال :

- لقد علمتم يا معشر تغلب أنني أبو نيرة ، أول فرسانكم عند اللقاء ، وآخرهم عند اقتسام النوى^(٥) . وعلمتم أنني كنت عند كليب بن ربيعة في أكرم مكان ، فما أصيب فيه بعد المهلهل وقومه أحد مثل مصابي . ولو كان أحد من تغلب يتحرق قلبه على طلب النار ، لكنت أنا ذلك الرجل قبل سواي . ولكن الحرب تحطم وتفتك ، فإذا هم كثرت عن أنيابها وشمرت عن ساقها جمحت^(٦) . فلن يملك أحد أن يكبحها^(٧) ، ولن يستطيعها إلا من عركها وصبر على خد نابها ، وإني أشفق عليكم منها إذا أنتم سارعتم إليها وراء هذا الفتي الذي قد عرفتم أمره . فهو لن يلبث أن يحن إلى مجونه ويذوب شوقاً إلى خمره ونسائه . والحرب

(١) الرعونة : العوج والحمق .

(٢) عركته : حنكه وأدبته .

(٣) حلب الدهر أشطره : خبره وتمرس بخبره وشبهه .

(٤) الأغرار : جمع غر وهو من كان ذا غفلة وقليل فطنة .

(٥) النوى : الغنيمة .

(٦) جمحت : تغلبت عليهم .

(٧) يكبحها : يردّها .

لا يقوى عليها مثل ذلك السادر في لهوه ، الذى لا يكاد يُفَيِّق من شرابه .
فعلت من جانب الوادى مهمة^(١) تعالت حتى تجاوزت الأصوات فيها بالجدال العنيف
والسباب ، وهم بعضهم إلى بعض بالسيوف .

فصاح أبو نويرة غاضباً :

- على رسلكم^(٢) أيها الفتيان ! فما هذه إلا طلائع الخذلان .

فقام شاب من أقصى النادى يهز رمحه في يده وصاح :

- لقد حملتنا على الدنية^(٣) ! ورضيت لقومك الذلة . هذه بكر ترفع ذيلها وتمتنع .

وهل كان جديراً بنا أن نأخذهم بغير السيف ؟ ما هذه الثروة التى لا تزيدنا إلا ذُلًا . أما إنا

سنصير في العرب مثله وأحدوته ، إذ وترنا^(٤) قوم في عزيزنا فبعثنا وراءهم نسألهم أن يمتوا

بالسلام علينا . أى عار جلبتم على قومكم يا شيوخ تغلب !

وعلا الضجيج مرة أخرى ، وتزايدت ألفاظ السباب .

فقام أبو نويرة وأشار بيده مرة أخرى حتى سكنت الناس ، فقال في صوت هادئ تشبه
نغمته أن تكون اعتذاراً :

- لقد كان حقاً علينا أن نُعذر^(٥) إلى بنى عمنا قبل أن نبدأ حربهم . ولقد عرفتم أن

العرب لا ينصرون الظالم ، ولا يؤازرون من اعتدى . لقد قتل جساس كلياً ، وذهب إلى

الناس يزعم أنه ما ثار عليه إلا لطغيانه ولما قتله إلا لظلمه . وذهب الناس عنه بين مصدق

ومكذب . فإذا نحن عجلنا إلى الحرب بادئ البدء لم نذهب إلا بكلمة مصدوعة^(٦) ورأى

متفرق . فإذا كنا قد آثرنا أن نرسل إليهم رسلنا ، فما هذا إلا لكى نُعذر إليهم . فنكون بهذا

قد قمنا بما يجب علينا من رعاية الحرمه ، وحفظ الحق الذى يوجب الرحمة بيننا وبين بنى عمنا .

فإذا هم أبوا أن يتزلوا على حكم الحق ويرضونا بالقصاص من الكفاء ، إذا هم أبوا أن يسلموا

إلينا جساساً نقتله في ثأرنا سرنا إليهم وكنا عند ذلك يدأ واحدة . ونرى قبائل العرب عند

(١) المهمة : الكلام المسموع الذى لا يفهم محصولة .

(٢) على رسلكم : اتنلوا ولا تمجلوا .

(٣) الدنية : القبيحة .

(٤) وترنا : أصابنا .

(٥) نعلم : نفصح لم مجالاً للاعتذار .

(٦) مصدوعة : متفرقة .

ذلك من ورائنا تشد أزرنا ، وتقوى عضدنا . ولعل قبائل بكر لا تُجمع على الظلم ، فيقعد بعضها عن حربنا . فإذا لاقتنا شيبان وحدها بعد هذا ، كان الحق يخذلها ، ولم تجد من ورائها من العرب من ينصرها .

ولما انتهى من مقاله ، ارتفعت الأنظار إليه شاخصة لا تطرف ، كأنها تحملق فيما وراء الأفق البعيد تستشف ما وراءه . وبقى أبو نويرة صامئاً يدير بصره في القوم لحظة ، ثم هم أن يعود إلى القول ليم ما بدأه من الأثر ، فإذا بصوت ناقة تحن وترغو في أنين متقطع عميق ، تحمله الريح في الليل الساكن من بعيد . فسكت أبو نويرة وأصغى بأذنه إلى الصوت ، وسكن الجمع في مجالسه ينصت ، فقد عرفوا أن تلك ناقة الحارث بن حى أحد الرسل الموفدين إلى بكر ، وكانت الناقة والدة في الحى تركت فصيلها ، فما كادت تعود وتقرب من موضعه وتشم رائحته حتى ضجت له بالحنين .

ومضى بعد ذلك حين ، خرج فيه جماعة يتلقون الوفد ، وبقى آخرون ينتظرون ، حتى أقبل الرسل وأناخوا إليهم وأتوا إلى النادى يحيط بهم جماعة الشبان ومعهم المهلهل مشرق الوجه متهللاً .

ولما سلم القوم واطمأنوا في مجالسهم حول النار بين الكتبان قام أبو نويرة ببطء وهدوء ، وقال يخاطب كبير الوفد الحارث بن حى :

- إذا صدق الظن ، وأصاب الحس ، فقد عدتم من بكر بسيوف مصلته ، ورماح

مشرعة .

فساد الصمت لحظة ، ثم رفع الحارث رأسه وتكلم بصوته العميق وهو مطرق فقال :

- سيخفون غداً أنهم ظلموا وما عدلوا ، وستقيم تغلب حقها على حد السيف ، وتنال

منهم بالقسر ما أبوا بالسلام .

فتحرك الشبان في مجالسهم قلقين ، وهوا بالوثوب غاضبين .

فقال أبو نويرة يخاطب الحارث :

- ألم تنصف بنى عمك يا أبا حى ؟

فقال الحارث في تردد :

- لقد أنصفنا بنى عمنا فما أنصفوا . طلبنا إليهم أن يسلموا إلينا جساساً نقتله في كليب

فنحنن بذلك بيننا الدماء ، فقال أبوه مرة : « إنه ركب فرسه وضرب في الأرض ، فهم

لا يدرون أى البلاد انطوت عليه . فطلبنا إليهم أن يسلموا لنا أخاه هماماً فهو كفء كريم نقتله بقتيلنا . فقال مرة ساخرأ : « إن هماماً أبو عشيرة^(١) ، وعم عشيرة ، وأخو عشيرة ، كلهم بطل فارس ، ولن يسلموه لو أردت أن أدفعه إليكم لتقتلوه بجزيرة غيره » . فقلنا للشيخ : إذن فقد رضينا بك أنت لتكون مطفئاً لنا نارنا . فقال الشيخ فى عناد : « والله لا أسلم نفسى قبل أن أجول فى الحرب جولة وأموت مناضلاً » . ثم قال فى كبرياء وغلظة : « ولكنى أعرض عليكم غير هذا ، أعطيكم ألف ناقة سود المقل لتكون دية كريمة لقتيلكم ! »

وسكت الحارث لحظة ، وقد بدا على وجهه الغيظ ، وانفجر الجلوس فى غضبة واحدة ، فلم يستقر أحد منهم جالساً ، ولم يبق فيهم أحد صامتاً . وصاح المهلهل وقد كان إلى ذلك الوقت ما كنا : « واكلياه ! تقتل وأنت العزيز فى ثأر ناقة عجفاء ، ثم لا يبذل فى دمك الغالى سوى الجزر . واكلياه ! هل كنت لتباع بالنياق ليشرى القوم ثمنك لبناً » . وعلت على أثر قوله ضجة تصم الآذان . وتصايح الشبان من جوانب النادى : « ويل لبكر ! الحرب والفناء لبكر ! »

ثم نظروا إلى المهلهل وقد علا وجهه بريق الانتصار ، فقام ليتكلم ، وانجذبت إليه الأنظار ، فقال :

« لقد علمتم أن كلياً كان لكم عزاً ومجداً ، به سُدنا ، وبسيفه انتصرنا وعلت كلمتنا . ولقد أكل الحسد قلوب أعدائكم فلم يجدوا لكم رزاً^(٢) أشد عليكم من فقد كليب ، ولم يعرفوا جرحاً أوجع فيكم من طعنة فواده . فهم إذا أصابوه لم يقصدوا إلا مجدكم ، ولم يطعموا من وراء مقتله إلا أن يسودوكم . فوحق مناة وأوال ، وحق السيف والرمح ، وحق المصاب الفاجع ، والنظم الموجه ، لنأخذن بئار كليب حتى لا يبقى من بكر موضع ثأر ، ولنأخذن بحقه كاملاً ، حتى لا يبقى عضو منه أو جارحة لا نثار لها ، بل لنأخذن بئار الشُّع^(٣) الذى كان يربط به نعله ، نقتل به عزيزاً منهم . و سرّاً^(٤) من سرائهم » .

(١) فى كتاب تجريد الأغاني لابن واصل الحموى عشرة بدل عشيرة .

(٢) رزاً : مصيبة عظيمة .

(٣) الشع : سير يدخل بين الأصبعين ويدخل طرفه فى الثقب الذى فى صدر النعل .

(٤) السرى : السيد الشريف السخى .

وكان الغضب قد بلغ منه عند ذلك مبلغ التوقد ، فاحمر وجهه وتقبض ، ولعت عيناه لمعاناً وحشياً ، وتصلبت أعضاؤه وهو يشير بيديه مهدداً . وسرت عدوى غضبه إلى الحاضرين ، فلاححت على وجوههم علائم الثورة ، واكست جباههم بظلال الدماء ونظروا إليه وقد ملأهم العجب أن يكون هذا الثائر المتوثب عدى بن ربيعة (المهلهل) ، الذى لا يعرف إلا الخمر والتغنى بالنساء .

ولم يشعر القوم وهم فى هذه الثورة بقدوم جماعة أقبلت عند ذلك ووقفت عند طرف الجمع لتسمع آخر مقالة المهلهل ، وتشهد الغضبة الشاملة التى عمت نادى تغلب فى تلك الليلة .

ولما خمدت حدة الثورة تقدم الوافدون نحو المهلهل ومدوا إليه أيديهم بالحماية ، وقال كل منهم له كلمة تعزية ، ثم ذهبوا نحو أبى نورة فرحب بهم وفسح لهم المجالس فى صدر المكان ، وعاد الهدوء بعد قليل إلا همسات بين الجالسين يُعرف بعضهم بعضاً بهؤلاء الوافدين . وبعد قليل وقف أبو نورة فأشار بيده إلى الجمع أنه يريد الكلام ، ثم قال كلمة رحب فيها بالمقبلين ، وشكر لهم سعيهم بالعزاء . ولما انتهى من ذلك صمت لحظة ثم نظر إلى قومه وأشار إلى كهل من الضيوف وقال : « بطل بنى بكر الحارث بن عباد » .

فتطلعت الأنظار إلى الرجل الذى أشار إليه أبو نورة ، وكان رجلاً طويلاً قد وخط^(١) الشيب لحيته ، ولكن قامته المعتدلة ، وبناء جسمه المتين واتزان حركاته وهدهوها كانت تم عن أنه زعيم اعتادوا أن يقود وأن يغامر ، وأن يأمر وأن يطاع . وبعد لحظة من السكون قال أبو نورة مخاطب ابن عباد : « إذ شئت يا أبا ضبعة » .

فوقف الحارث متكئاً على رمحه ، وتكلم وفى صوته رنة من الحزن فقال : « يا أبناء العم من تغلب ! لقد علمتم ما كان مما لا حيلة فيه ، وكان فقد كليتب مصاباً جليلاً ، عمنا معاشر بنى بكر كما عمكم . وأصاب أفئدتنا كما أصاب أفئدتكم . وكنا نرجو أن ينصف إخواننا بنو شيبان من أنفسهم ، فيحققوا الدماء ويحمدوا نيران حرب لا يصيب فيها الرجل إلا أخاه ، ولا تقطع فيها يمين المرء إلا بسراه . ولكن بنى شيبان لم ينصفوا ولم يعدلوا ، ولجوا فى العناد وأصروا على البغى ، فلا حاجة بنا إلى نصرتهم ولا رغبة فينا إلى مؤازرتهم . فنحن بعد اليوم بمعزل ، وإن كنا لانملك أن نحاربهم معهم . فلست بناصريهم عليكم ، ولهذا عزمت على أن

(١) وخط : خالط وفشا .

أَكْسَر سَهَامِي وَأَنْزَعَ الْوَتَرَ عَنْ قَوْسِي ، وَأَسِيرَ بِأَهْلِي وَمَنْ أَطَاعَنِي لِأَبْعَدَ عَنْ هَذِهِ الْفِتْنَةِ ، وَلَعَلَّ إِخْوَانَنَا يَجِدُونَ بَعْدَ الْغَيْ هَدًى » .

ولما انتهى من مقاله قعد إلى جوار أبي نؤيرة بين همهمة خافنة ثم عن ارتياح وشكران .
وتعاقب بعد ذلك الخطباء من الوافدين بعضهم من قبائل بكر الأخرى : بني عجل وحنيفة ويشكر ، تعلن الانفضاض عن إخوانهم بني شيان أو الانتصار لتغلب ومؤازرتها ، وبعضهم من فروع النمر بن قاسط ، جد بكر وتغلب الأعلى ، وقد جاءوا لنصرة بني أبيهم التغليين على بني أبيهم البكرين الذين تمادوا في البغي والظلم .

وهكذا صارت قبائل ربيعة كلها بدءاً واحدة تطالب بدم بطلها . وأصبحت شيان في عزلة ، تستعد للمقاومة وحدها ، والدفاع عن جريمة ولدها الباغي جساس بن مرة .

ولما هم المجتمعون بالانصراف بعد ذلك وقف عدى بن ربيعة (المهلهل) في سكرن وأشار بيده إليهم قائلاً :

- على رسلكم يا بني أبي !

فوقف القوم ينظرون إليه ، وكانوا عند ذلك أكثر إقبالا ، وألسلس أسمعاً . فقال :
« لقد علمتم ما كنت عليه من ضلال وغى ، وانصراف إلى اللهو والمجون . لا أنكر ذلك ، ولا حاجة بي إلى نكرانه . ولست أدافع عن نفسي ولا أبرئها . فقد كنت سادراً في ظل كليب ، كفاني بشجاعته مؤونة الجدد ، وصرفتني جاهه إلى اللهو في غير قصد . ولكن قتله سلبنى حمايته ، وأفقدني جاهه ، وعلى أن أقطع سائر أيامي في قضاء دينه والوفاء له . وقد آليت منذ اليوم على نفسي ، وعقدت بينكم موثقاً ، أن الخمر على حرام لا أذوقها ، والنساء على حمى لا أقربه ، وأن الطبيب لن يمس جلدي ، وأن الماء لن يبل جسدي ، حتى أثار لكليب ثأراً تطيب له نفوسكم » . ثم تردد قليلاً وقال بعد صمت قصير : « وتطيب له نفسي » .

ثم سار مطرقاً ، وسار القوم في إثره واجمين ، وقد تمثلت على وجوههم عزيمة الجدد . وطلب الثأر .

كانت حرباً عنيفة ليس فيها بقيا ولا هواة ، كانت تغلب تتعقب شيبان أينما تحل ، لا تترك لها متنفساً من الراحة ؛ فإذا انتهت من وقعة وانحازت شيبان إلى منزل بعيد لتداوى جراحها وتصلح سلاحها وتجم خيوطها ، فاجأها بنو عمها قبل أن تظمن في مقامها الجديد ، فيوقعون فيها وقعة جديدة أشد عليها وأنكأ لجراحها . وكان المهلهل لا يفتأ يذكر أخاه في ليله ونهاره ويبيكه في شعره ، فلا يكاد قومه يعودون من القتال حتى يذمرهم ويحرضهم فيشبون معه إلى حيث يمضى بهم . وقد أسلموه قيادهم واتبعوه ، لا يجادلونه في رأى ، ولا يعصونه في أمر ؛ فقد وجدوا فيه قائدهم الذى يسبقهم إلى الصدر ، ويفرق لهم صفوف العدو ؛ يضرب حانقاً . ويندفع في غمار الجموع ثائراً ، يطحن ويمزق ولا تريد الأحقاد مع تهادى الحروب إلا اشتعالا . وألفت تغلب القتال حتى كأنهم يجدون المتعة في مناظر الدماء ، وضجيج الهيجاء . وترحزحت شيبان عن منازل الينس إلى اليمامة ثم ترحزحت حتى بلغت أطراف القفر ، تلتمس النجاة من العدو الملح ؛ لعل المهلهل يخشع عنها بعد أن نال منها ما نال في وقعاته العنيفة وحسبت أنه يستوحش من تلك القلوات ، فلدجأت إليها على ما تتجشم فيها من قسوة الحياة .

ولكنها لم تلبث أن سمعت أن عدوها لا يزال يزحف إليها ، ويخترق في سبيله القدافد^(١) الوعرة التى ظنوها تحميهم وراءها .

وكان يوماً شديد الحر من أيام الصيف عندما سمع مرة شيخ بنى شيبان بأن المهلهل قادم في غزوة جديدة مغيراً بقومه تغلب وحلفائه من قبائل بكر والنمر بن قاسط . وكان بنو شيبان عند ذلك نازلين بآخر منزل حلوا فيه بعد هزائمهم المتكررة ؛ فضربوا خيامهم عند عين واردات في أطراف اليمامة ، بعد أن هجروا رياض نجد وأوديتها الخصيبة منذ غلبهم عليها بنو عمهم في الوقائع الماضية : وقائع النهى وغنيزة والذنائب ، وكانوا لا يجدون في وادى واردات إلا أقل المراعى كلاً ، وأشح العيون ماء ، وأشد البلاد حرّاً وإقفاراً ، ولكنهم كانوا لا يزالون يأبون النزول على حكم عدوهم ، وإن كان عددهم قد صار إلى القلة ، واضمحل أمرهم وضاعت أموالهم في حروب تلك السنين الطويلة .

(١) القدافد : الأرض الواسعة المستوى لا شئ بها والجمع قدافد .

ووقع نبال الغارة الجديدة على الشيخ مرة وقع الصاعقة ، لأنه كان يعرف قلة عدد فرسان قومه وكثرة المتألمين عليهم من فرسان القبائل الأخرى ، وزاد في شدة الأمر عليه أن سنوات الحرب كانت سنوات جذب ذهب بأكثر الأموال ، وأن السماء لم تسعف الشتاء المنصرم بما يحى المراعى ويسمن البهم ويدر الألبان . وجعل يقلب وجوه الرأى فيها هو صانع في تلك الغارة ؛ أيقف مرة أخرى لعدوه القوى ، أم يستعد للتزوح إلى فياف الدهناء المخيفة ؟ وفيما هو في ذلك الهم الشاغل أقبل عليه ولده جساس مسرعاً ، فرفع الشيخ بصره إليه صامتاً وهو يعث بلحيته البيضاء بأصابه النحيلة في شئ من الاضطراب ؛ فوقف جساس لحظة ينظر نحوه وقد امتلأ قلبه شفقة على ذلك الشيخ المهتم ، الذى ما زال يحمل هموم قومه تلك السنين الطويلة بما فيها من الهزائم والهن ؛ وكان يحس بجريمته وشؤمه ، إذ كان السبب في إثارة تلك الفتى وإنزال تلك الكوارث بقومه ؛ واقترب من الشيخ فجلس القرفصاء^(١) إلى جواره ، وقال بصوت خافت فيه رنة الرحمة : « أبى ! »

فلم يرد الشيخ أن يظهر شيئاً مما كان في نفسه من الهم ، فأصرع مجيئاً في هدوء : « لعلك قد علمت نبأ تحرك القوم نحونا يا جساس . »

فقال جساس بصوت متردد : « هذا ما جئت أحدثك فيه . »

ومضت لحظة قصيرة عليهما في صمت ، ثم قال جساس :

« لقد رأيت يا أبى ما جلبت على قومي من المصائب ، وقد بدا لي اليوم عظم جرمي عليكم وشناعة مضررتي لكم ؛ كنت شاباً نرقاً لم أعرف مغبة عملي وعاقبة تهورى ، حتى مرت بنا هذه الأحداث وتطاوت علينا مدة الحرب هذه السنين ؛ فعلمت الحق بعد أن تفلت الأمر من الأيدى ، ورأيت أنني كنت ، كما وصفتنى يوم قتلت كليباً ، جانياً مشتوماً منكوداً ، علمت أنني لم أحرز لقومي عزة بقتل كليب . بل أذهبت عنهم عزتهم ، وفرت كلمتهم وأفشيت فيهم الشك والويل . »

فلم يجب الشيخ على قوله بكلمة . بل ظل مطرقاً وهو يعث بلحيته ، وساد الصمت حيناً آخر ثم استمر جساس قائلاً : « وقد عزمت يا أبى على أن أحمل جريرتي دونكم . وأبذل

(١) القرفصاء : أن يجلس الشخص على ركبتيه متكياً ويلصق بطنه بفخذيه ، ويتأبط كفيه .

نفسى فى فدايتكم لعل أنقع^(١) غلة^(٢) ذلك الصديان^(٣) الذى لا يرتوى من كل ما أراق من دماثنا .

فرفع الشيخ رأسه مسرعاً وقد بفته ذلك رأى الجديد وقال مندفعاً « ماذا تقول يا جساس ؟ »
فاستمر جساس يتكلم فقال : « ولقد عزمت على أن أذهب إلى المهلهل وأسلم إليه نفسى ، لعله يقنع بى وينصرف عنكم » .

فقال الشيخ وفى صوته غضبة ثائرة : « أبعد إذ كان ما كان ؟ أبعد أن قتل من ولدى وقومى من قتل فى سبيل الحفاظ والكرامة تسلم نفسك إليه ؟ أتلحق بنا المرة التى كرهناها ، وتنزل بنا الصغار الذى أبناه ؟ وما لذة الحياة بعد من ذهبوا ؟ وهل يحل بنا بعد اليوم إلا مثل ما حل بقومنا بالأمس ؟ لقد أبننا أن نسلمك لهم ونحن أعزة فلن نسلمك لهم ولم تبق لنا عزة نحرص عليها . ليس بيننا وبين المهلهل إلا الفناء » .

وكانت العزيمة الصارمة التى فى صوته لا تدع مجالاً للمراجعة ، فنظر جساس إلى وجهه المجعد لحظة ، وخفق قلبه حزناً ، إذ رأى عليه أثر الهم الذى يضره فى قلبه ، وأحس أنه لا يزال الابن الصغير الضعيف أمام ذلك الأب الشيخ القوى الفتى ، ولم يستطع إلا أن يغض عينه حتى لا تقع فى عين أبيه الصارم . فاطرق إلى جواره موزع النفس كاسفاً .

ومضت لحظة أخرى فى صمت ثم استأنف جساس القول ، وكان فى هذه المرة أكثر تردداً واضطراباً . وقال : « إذا كنت يا أبى قد عزمت على المضى فى هذه الحرب فلا أرى لك أن تبقى ها هنا » .

فقال الشيخ فى هدوء وقد نظر إليه فاتراً : « وإلى أين نذهب إذا لم نقم ها هنا ؟ لقد اضطرننا إلى هذا المقام اضطراباً ، ولم يبق لنا بعد هذا الوطن إلا الفياق القاطعة . ولن يكون لنا فيها إلا العذاب ثم الهلاك . وإذا كان ولا بد من الموت فليكن على ظهور الخيل والسيوف فى أيدينا » .

فقال جساس وقد زاد اضطراباً وتردداً : « لقد بدا لى رأى إذا أحببت أن تسمعه » .

فقال الشيخ ولا يزال فاتراً : « قل ما بدا لك يا ولدى » .

(١) أنقع : أروي .

(٢) الغلة : حرارة العطش .

(٣) الصديان : شديد العطش

قال جساس بصوت خافت : « نحمل نساءنا وأطفالنا وننتسلل في أودية اليامة حتى نبلغ منازل تغلب من وراء ظهورهم . فتتقوى بما عندهم من أموال ، وإذا رجعوا إلينا بعد حين ليحموا حرمهم ، قابلناهم وقد استرحنا وهم في جهد السفر الطويل » .

فحرك الشيخ حركة ضجر في مجلسه وقال في لهجة قاسية : « نذهب إلى منازل تغلب ؟ وماذا تجد هناك سوى النساء والصبية ؟ أو كل ضعيف من الشيوخ والمرضى ؟ أتريد أن تعيد علينا مرة فوق مرة ؟ ألا تذكر يوم قتل (ابن غنم) المرأة التغلبية ؟ ماذا جر علينا قتل المرأة غير العار الذي لا يزال لاحقاً بابن غنم وأهله وقومه ؟ دع عنك هذا ، فإنك إنما تنصر عدوك بمثل هذا البغي . إننا لو فعلنا ذلك الذي تشير به لما زاد علينا العرب إلا غضباً ، وكفانا ما جلبنا على أنفسنا من عداوة لأقوام » .

ولم يطل الحديث بعد ذلك بين الأب وابنه ، فقد أقبل همام بن مرة مسرعاً على فرسه وهويلوح بشملته في الهواء ، وفي مظهره ما ينم عن الفزع من أمر خطير . فأسرع الشيخ ليقف على قدميه وهو يترنج من ضعف الشيخوخة ، وساعده جساس حتى وقف ، وسار بخطى متعثرة نحو ولده المقبل ، ينظر نحوه في لهفة ، وجساس إلى جواره يسنده من تحت إبطه .

حتى إذا ما اقترب منه همام صاح به في لهفة : « هل من جديد ؟ »
فقال همام مسرعاً :

- القوم وراء هذه الكثبان .

وأشار إلى الرابي الصفراء التي عند الأفق . ثم قال وهو يهمز فرسه :

- هلم يا جساس . املاً لنفusk قربة ماء والحق بي ، فإنني ذاهب لأنذر الناس .

ولم ينتظر همام جواباً ، بل لف لثامه فوق أنفه وفمه ، ليتقى به الهواء اللافح والحر المتقد ،

ثم وثب بفرسه نحو منازل قومه . فقال الشيخ وهو ينظر في أثره : « ولدي ! »

ثم غصّ بريقه فسكت ، ووقف ينظر نحو التلال البعيدة كأنه في حلم .

ووثب جساس إلى فرسه ، فما هي إلا لحظة حتى كان في أثر أخيه . وغيبهما الغبار

الناثر عن عيني الشيخ الحزين .

بعد ساعة كان فرسان بني شيبان يسرون نحو الكثبان ليلاقوا العدو المغير ، وسيوفهم

تبرق في أيديهم ، وأسنة رماحهم تلمع في ضوء الشمس الساطعة كأنها شرر منبعث من لهب ،

وكانت الرياح الحارة تثير الرمال وتلفح الوجوه ، وتكاد تخنق الأنفاس . ونظر مرة إليهم وهم

سائرون ، فرآهم صفوفاً ضئيلة فوق خيول ضامرة ، يسرعون إلى القتال وهم يعلمون أن العدو قد أقبل نحوهم في عدده وعدته ، يريد أن يستأصل بقيتهم بعد أن أفنى منهم الألوف في وقعة بعد وقعة . واسودّت الدنيا في عيني الشيخ عندما تذكر أنه لم يبق له من قومه إلا هذه الحفنة القليلة ، ولم يبق بيت من بيوت شيبان إلا وقد فجّع في زهرة شبابه وصفوة فرسانه . فرفع يده إلى عينه ومسح دمعة ترفرت فيها ، قال كأنه يحدث نفسه :

« ألا ما أقلها من بقية ! لقد عشت حتى أرى هذا ! فبا ليثني . . . »

ثم توقف عن إتمام قوله كأنه لم يشأ أن يدع نفسه تتأدى في هذه الخواطر البائسة في مثل تلك الساعة الخطيرة . وهز نفسه ووقف ينظر بلهفة إلى الفضاء القسيح حيث يرجح ميزان القضاء .

وسارت الكتيبة الصغيرة حتى صارت في منبسط الأرض ؛ فوقفت تنظم صفوفها ، وترتب خطتها . فاختار همام جماعة من الفرسان ليكونوا معه طليعة ، واختار جساس جماعة أخرى ليكونوا لهم رداءً^(١) ، وأرسلت طائفة ثالثة مع عمرو بن السدوس إلى ثنية وادى إردات لتكون للعدو ، وتخرج عليه إذا وجدت الفرصة سانحة .

واتفق قادة شيبان على أن يتقدم همام إلى العدو فيحاربه ويبارز أبطاله ؛ حتى إذا التحم الجيشان واستحضر القتال تظاهر همام بالهزيمة ، فيقف جساس بمن معه في وجه العدو المتقدم ، حتى يتمكن همام ومن معه من العودة إلى المنبسط القسيح الذي وراء الكثبان ، ليستريحوا ويشربوا من قِرب ماء يضعونها في الرمال ، ثم يتظاهر جساس بالانهزام متياسراً ، ويتقهقر بجماعته إلى ناحية الكمين ؛ فإذا ما أوغل العدو وراءهم في السهل وظن أنه أوقع بهم الهزيمة وقصد إلى منازل شيبان لسبي من فيها من نساء وأطفال ، وغنم ما بقى بها من مال وأثاث ، خرج عليه كمين ابن السدوس فجأة وعاد همام وجساس يكران بجماعتهما ؛ فيأخذونه وهو آمن مشتبك ، مشغول بجمع الأسلاب ، ويوقعون به هزيمة محققة يستردون بها شرفهم ، وينتقمون لما سبق من مصابهم .

ولما تم تدبير هذه الخطة تقدم همام وقد حمل قرية من الماء جعلها على عاتق فرسه ، وقال لأصحابه : « لا ينس أحدكم أن أمامه اليوم قتالاً مجهداً في صحراء جرداء ، فليحمل كل منكم قربته ، فإذا صرنا عند الكثبان جعلها في موضع يعرفه ، فإذا أجهده القتال قصدها

(١) رداءً : معيناً وناصراً .

فارتوى ثم عاد إلى قتاله نشيطاً ، فالיום لا يموت إلا العطاش .

ثم ركب فرسه وسار نحو الكئبان ، وأصحابه وراءه يسوون سلاحهم ودروعهم ، وقد امتلأت قلوبهم عزيمة وأنفة . وكانت تغلب لا تزال وراء الكئبان تنتظر أمر المهلهل بالمسير ، وهى تملأ الفضاء خيلاً ورجالا . وكانوا لا يظنون أن بنى شيبان يجروون على المسير إليهم ، فقد كانوا يعلمون أنهم صاروا فى قلة من العدد ، وجهد من طول الحرب ، يقيمون فى أرض قاحلة ، ويقاسون مرارة العيش فى وادٍ قفر . وكان المهلهل يرى أن تلك الغارة لا محالة تأتى عليهم ، وتقضى على من بقى منهم ، ولهذا لم يتعجل فى زحفه بل كان يؤثر المقام فى مكانه حتى يفتر الحر ، وتميل الشمس ، فيسطو عليهم سطوة لا يلبثون معها أن يتفرقوا ، فيقتل فيهم من شاء حتى إذا أقبل الليل كان قد طواهم فى هزيمة قاضية .

كان المهلهل لا يزال فى خيمته يستظل حتى تميل الشمس عن كبد السماء ، فإذا بكتيبة شيبان تطلع من وراء الكئبان وتهبط على فرسانه كما تحل العاصفة فجأة . فاضطرب الجمع المحتشد ، ونواثبو إلى خيولهم وتصايحوا ؛ يدعو بعضهم بعضاً ، وينادى قريبهم البعيد . فوجد همام فى ذلك الاضطراب فرصة فانتبهزها ، وأهوى بجماعته القليلة على من لقيه من أدنى القوم ، فقتل فيهم مقتلة عظيمة ، حتى هم سرعان بنى تغلب بالانهزام ، ودفع المنهزم أخاه من ورائه ، وكادت المفاجأة تنتهى فى تغلب إلى نكبة كارثة .

وعند ذلك أقبل المهلهل من أقصى الميدان فى سلاح تام ودروع ضافية ، واندفع إلى عدوه كأنه سهم انطلق من قوسه ، لا يتردد ولا يميل ، وهو يضرب بالسيف تارة ويطلق بالرمح أخرى ، فلا يصمد إلى فارس حتى يجذله ، ولا يجالذ بطلا حتى يصصره ؛ كأن صخرة تهوى حيث هوى وهو كلما ضرب فارساً صاح بصوت يدوى : « واكليباه ! » فعرفت شيبان الضجة ، وعرفت أنه المهلهل بن ربيعة ، الذى آلى على نفسه ألا يزال دهره على أهبته ، لا ينزع جوشه^(١) ولا يضع درعه ولا بيضته^(٢) .

ووجد بنو تغلب عند ذلك متنفساً من الوقت للاستعداد ، فركبوا خيولهم سراعاً واجتمعوا من أطراف الفضاء خفافاً ، وعاد الذى كاد ينهزم ، واطمأن الذى كاد ينخلع ، وأحاطوا بكتيبة همام حتى كادت لا تجد ثلماً للفرار .

(١) الجوش : نوع من اللروع يلبس على الصدر وقاية من السلاح .

(٢) البيضة : الخوذة .

ولكن بنى شيان ، وإن كانوا قلائل في العدد ، كانوا من فرسان اعتادوا مقارعة الأبطال ، وطالت بهم منازلة الشجعان .

فما زالوا يتلقون الضربات بالدروع ، ويتواثبون فوق خيولهم كسعالى من الجن ، حتى استطاعوا أن يخرجوا من حلقة العدو ، وقد أوشكت أن تلتهم حولهم ، وأسرعوا فوق الكثبان منهزمين نحو الفضاء الفسيح الذى دونها . ولحقت بهم خيول تغلب غير مترددة ، وتدفقت وراءهم كأنها السيل ينحدر إلى بطن الوادى . ولكن المهلهل بقى حيث كان ، فما كان مثله ليتبع منهزماً فهو للقاء العدو المقبل ، وليس لاقتفاء المنهزم المدير .

كان حساس عند ذلك رابضاً بمن معه وراء الكثبان ، فلما رأى خيول تغلب فوق الكثبان ، أسرع إليهم . فوقف فى سبيلهم ، فعطف المغيرون عليه وتركوا هاماً ومن معه يمحضون فى سبيلهم .

وقاتل حساس فى جماعته قتال المستميت ، وكان الفضاء الرحب أرفق بهم ، وأطلق لحركاتهم ، فكانوا يفرون ثم يكررون ويحاورون عدوهم ثم يعودون إليه ، حتى خيل إلى بنى تغلب أنهم يلاقون جيشاً خميساً^(١) وعدداً عديداً . وزادت هيبة الفئة القليلة فى قلوبهم فترددوا فى لقاءها ، وتحاموا بطشها وقتالها . وعلا ضجيج القتال ونجاوب الفضاء بأصوات الحديد ، فسمعها المهلهل وهو فى مكانه يستريح مما ناله من جهد القتال الأول ، فأسرع مبادراً فاعتلى الكتيب وأشرف على الفضاء ، فرأى كتيبة حساس تطحن قومه فى قتالها العنيف . فانحدر نحوها يصيح صيحته ، فما سمعت تغلب الضجة حتى اشتدت عزائمها فحملت حملة شديدة . ورأى حساس أنه لن يستطيع الثبات أمام ذلك التيار الأثنى ، فانهزم بجماعته متياسراً نحو وادى (واردات) ، وتبعهم مهلهل يصيح : « واكلياها ! » .

وسمع حساس الصيحة فعرف أن ذلك الفارس هو مهلهل المخيف ، وغلى الدم فى رأسه عندما تذكر من قتل من إخوته ومن قومه ، وكان العطش قد أجهدته وطول القتال قد أجهضه ، ولكن الغيظ غلب عليه ، فأشار إلى فارسين قريبين منه أن ينحازا بجماعتهما إلى جانب الوادى وعاد هو نحو عدوه محققاً ، يطلب القتال الذى لا هوادة فيه .

ووقف حساس وجهاً لوجه أمام عدوه الفاتك وناداه أن يُقبل عليه للترال . فأقبل مهلهل

(١) خميساً : جيشاً جراراً ، سمي بذلك لأنه خمس فرق : المقدمة ، والقلب ، واليمين ، والميسرة ، والساق .

نحوه كأنه يقذف بنفسه قذفاً ، ووقف فرسان تغلب على مسافة منهما لبروا ما تنتهى إليه مبارزة القرينين .

قال جساس صائحاً صيحة وحشية : « إلى يا مهلهل ! أنا قاتل كليب ! أنا جساس ابن مرة إن أردت تأرك » .

وما سمع المهلهل اسم جساس حتى اندفع نحوه محققاً وغص بريقه من شدة الغضب ، فلم يجب إلا بضربة كادت تشق البيضة عن رأس جساس وتنفذ إلى دماغه .

فترنح جساس لشدة الضربة ، ولكن البيضة دفعتها عنه ، ثم تمالك نفسه بعد قليل وأهوى بسيفه نحو رأس خصمه فضربه ضربة أودع فيها مافي قلبه من حقد وغضب ، فتحول المهلهل عنها سريعاً ، فوقعت الضربة على عنق الفرس فقدته ، ووقع الفرس كأنه جلمود صخر .

ووثب المهلهل إلى الأرض حتى لا يقع تحت الفرس القليل ، ورمى سيفه عند ذلك وقبض على رمحه الطويل وهزه في يده حتى ارتاح إلى قبضته ثم سدده إلى قلب جساس وأسرع فقذفه به .

وأدهشت هذه الحركة جساساً فلم يستطع أن يأخذ رمحه في يده ، ولم يقدر على أن يبلغ المهلهل بسيفه وهو بعيد عنه ، فلما رآه يقذف نحوه الرمح البارق تحول عن فرسه إلى الأرض كالنمر الأرقط ، فلم تصب الضربة إلا جانب درعه ، ولكنها كانت ضربة غاضب محقق فزلزلته ، وكادت تلقيه صريعاً .

في تلك اللحظة سمعت صيحة عالية من وراء المهلهل ، فالتفت فرسان تغلب إلى جهتها ، فإذا كمين ابن السدوس يهوى نحوهم من جانب الوادى يريد أخذهم من وراء ، وكان المهلهل على وشك أن يتبع ضربته بأخرى ، فلما رأى الكمين مقبلاً نحوه أسرع إلى فرس قتل فارسها ، فوثب عليها وأتبعه مسرعاً نحو العدو المقبل ، وهو يقول في غيظ : « لهف نفسي على فوت جساس ! »

وما هو إلا قليل حتى اصطدمت الكتيبة المقبلة بمهلهل ومن معه ، وقد أقبلت بعد راحة من القتال ، فكانت على قلة عددها ثقيلة الوطأة ، شديدة الضربة .

وعادت في الوقت عينه جماعة همام بعد أن رويت واستراحت وعادت معها كتيبة جساس بعد أن تنفست .

والتحم عامة جيش شيان بعامة جيش تغلب ، وعلا القتال وعم الاضطراب ، واختلط



الجمعان وفشا في الجانبين القتل ، وتعالى فيها الضجيج ، وتردد التصريهينها ، فتارة تنحاز تغلب إلى الكتبان ، وتارة تنحاز شيان إلى جانب الوادى . وتفرق المتقاتلون ، فمتهزم يتبعه خصمه ، وراكض يلجأ إلى قومه ، ومتعب يلتمس صخرة يستريح عندها ، وظامئ يطلب شربة يرتوى بها ، ومالت الشمس إلى الغروب وميزان القتال لا يزال مترجحاً تارة يميل مع شيان وأخرى يميل إلى تغلب . وفي أثناء ذلك المرحج الشامل علت صيحة من جانب الكتيب حملتها الرياح النائرة مع رمالها ، وكان يمتزج فيها رنين الفرخ الوحشى بجلجلة واضطراب وفرع : « قتل همام بن مرة ! قتل سيد شيان ! » .

وسمع المتقاتلون تلك الصيحة وهم لا يعرفون من أين أقبلت . فوقفوا في مواضعهم يتلفتون في دهشة . فهل هى بعض خدع الحروب ، يقذف بها أحد المتحاربين يقصد من ورائها قصداً ؟ أم هو فارس من فرسان تغلب أصاب قريباً من فرسان شيان يحسبه سيد القوم فصاح تلك الصيحة وهو واهم قد اشتبه الأمر عليه ؟ أو هو رجل مدع من بني تغلب يريد أن يباهى لحظة بأنه قد هدد شيان بمقتل سيدها لكى يتحدث الناس باسمه حيناً فيرضى غروره حتى يظهر الحق بعد لآى ، فيكون قد أصاب من جلال البطولة نصيباً مخلوساً ؟ أم قد فترت تغلب عن القتال وأعيائها ثبات شيان فصاح رجالها تلك الصيحة لكى يتستر وراءها المهلهل ويأمر رجاله أن يكفوا عن القتال ، مكثفين من ذلك اليوم بما نالهم من جراح دامية في النضال العنيف ؟ ترددت كل هذه الخواطر في قلوب مختلفة وتلفت فرسان شيان وهم وقوف لعلمهم يرون بطلهم هماماً فيعرفوه بدرعه المعلمة وقومه الكميث النبيل . وأصاخوا بالأسماع لعلمهم يسمعون صوتاً يرتفع بتكذيب الصيحة الخبيثة فيطمئنوا على فارسهم الباسل . ولكنهم لم يسمعوا من ذلك شيئاً ، بل سمعوا الصيحة الأولى تتردد مرة أخرى في قموة كأنها من صوت القضاء . وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون : من يكون ذلك الصائح وهل هو ممن يعرفون من فرسان تغلب ؟

وعند ذلك ترددت الصيحة . وكانت في هذه المرة صرخة رددتها صفوف العدو في فرح : « قتل سيد شيان ! » .

فلم تلبث صفوفهم أن تفرقت ، ولم تلبث عزائمهم أن تضعضعت وتردد الفرسان لحظة ، ثم جرفهم خوف كأنه السيل ، فركضوا خيولهم يطلبون مضارب الخيام لعلمهم يقدرّون على حماية الحرم ، فيستطيعوا النجاة من العدو المنتصر .

ونظرت تغلب إلى مهلهل ينتظرون ما يقول بعد سماع ذلك النبأ الخطير ، فقد أجهدهم القتال ، وما كان مقتل مثل همام بالنصر اليسير . فهل يسير بهم المهلهل بعد هذا النبأ حتى يجهز على بني شيبان وهم في دهشتهم واضطرابهم ؟ أم يأمرهم بوقف الحرب والاكتفاء من ذلك اليوم بقتل همام ؟

ووقف المهلهل صامتاً لحظة بعد أن سمع الصبيحة ، وكان لا يزال في سلاحه ودروعه كقطعة من الحديد ، ورآه الفرسان يركز رمحه في الركاب ويسند عليه رأسه حيناً ، ثم رآه يرفع رأسه ويشير إليهم ويقول بصوت خافت : « ليهنكم النصر أيها الفرسان ، وحسبكم اليوم ما كان ! »

في تلك الليلة كان مهلهل يحول في أنحاء الوادي يسير في أثر ذلك الفتى الضئيل الذي قتل هماماً ، حتى إذا بلغ الفتى الجانب الأدنى من الكتيبان ، وقف وأشار إلى جسم ممدود على الأرض مائل إلى جنبه وقد اختلطت حوله الرمال بالدماء بمد يده نحو قرية ماء في حفرة بين الرمال .

وقال الفتى في لهجة المباشرة مشيراً إلى ثنية وراء الكتيب :

« هناك انتظرتني حتى اشتد به العطش ، فأتى ليرتوي من قربته التي جعلها في جانب من الرمال . فلما جلس ليستريح ويشرب تغفلته وطعنته ، وكانت طعنة قاضية » .

فنظر المهلهل نظرة ساهمة إلى الجثة الممدودة وإلى وجهها المعفر وغاب حيناً في صمت وتفكير ، ثم اختلجت شفتاه قليلاً ، ونظر إلى الفتى وقال :

- ألا تعرف فضل همام عليك يا ناشرة ؟

فقال الفتى :

- نعم . لقد أخبرتني أمي .

وكان ناشرة طفلاً من تغلب ولدتها امرأة فقيرة أرادت أن تثده بعد ولادته خوفاً من الفقر ، خشية ألا يجد طعاماً يكفيها مع ولدها ، فأحسن همام إليها وأعطاهها ناقة ولوداً تطعم من لبنها ، وضم الطفل إليه ليعيش مع أهله ، حتى شب ناشرة وعرف أنه تغلبي ، فذهب إلى قومه تغلب ليحارب معهم في وقعة واردة .

وبعد صمت قصير اردف الفتى قائلاً :

- لم أعرف في شيبان أكرم منه لأقتله في ثار كليب .

فحول المهلهل نظره عن الفتى ، ثم نظر إلى القتيل الطريح كأنه يريد أن يملأ منه عينيه ،
ثم قال والدموع تجري من مآقيه :

« أى همام ! يارب ليلة جمعتنا على المودة ، ويارب حديث تبادلناه على الصفاء . إن
الثأر حبيب إلى قتلك ، فأنت كفه كريم ، ولكن قلبي ينازعني إليك يا صديق الشباب .
وإن كبدي لحرى عليك يا خليل الصبا . ما قتل بعد كليب من هو أعز منك على . وما بقى
بعدكما في الحين من يُعقد الخير عليه » .

ثم التفّت إلى الشاب وقال في وجوم :

- اذهب يا ناشرة وغيّب وجهك عني .

ومضى نحو معسكر الجيش ، وترك الشاب مشدوهاً حائر الفؤاد . ولم يستطع المهلهل أن
يبقى بعد ذلك في واردات .

ففي تلك الليلة نفسها كان يسير في طليعة قومه عائدين إلى أرضهم ؛ فقد هزه قتل همام
فلم يدع له رغبة في معاودة القتال .

مضت السنوات تتوالى ، والحرب لا تزال دائرة بين بنى العم المتناضلين إلى الفناء . وشب الصغير فى أنثائها وفى الكبير ، ونبت من الفرسان جيل فى إثر جيل ، ولكن المهلهل لم تهدأ تأثيرته ولم يرتو بعد مما أسال من الدماء .

وتوالى المصائب على بنى شيان بعد وقعة واردات ، كما توالى عليها قبل تلك الوقعة فقتل همام بن مرة فى أثناء المعركة ، ثم قتل عمرو بن السدوس وقت الهزيمة ؛ ولم يلبث بنو شيان إلا قليلا بعد ذلك حتى روعوا بمقتل رئيسهم الجديد والبقية الباقية من قادتهم وأبطالهم ، وآخر أبناء مرة ، حساس قاتل كليب . قتل حساس ولكنه لم يقتل فى ميدان حرب ، ولم تطعنه يد غريبة ترصدت له ، بل أحاطت بمقتله روعة خلعت عليه لونا قائما من الفداحة ؛ فما كان قاتله سوى ابن أخته ، الهرجس بن كليب التغلبى .

كان الهرجس جنينا عند مقتل أبيه ، ثم ولدته أمه مجيلة بنت مرة ، وهى بين ظهراني قومها بنى شيان ، وشب فيهم ونما ، حتى أصبح قى الفتيان وزين الشباب : قى طويل القامة ، عريض المنكبين ، جميل الوجه ، ولكنه كان مثل أبيه تخالط جماله قسوة من عبسة بين عينين تلمعان لمعان فرند^(١) السيف . وكان قليل الكلام ، فإذا تكلم عذب قوله فى السمع ، ووقع فى النفس ، عظيم المروءة ، يسرع إلى النجدة ، ولا يبالي المخاطرة ، فاتخذ جده مرة أنيبا ، يفيض من بهجة شبابه على شيخوخته التى تطاولت به ، ويرفه بمنظره عن الآلام التى توالى عليه . وجعله خاله حساس فى أهله ولدا ، وزوجه ابنته الجميلة سعاد ، وكأنه أراد بذلك أن يكفر عن ماضى جريمته فى قتل أبيه ، وكانوا يسمونه ابن حساس حتى لا تدخل الأحقاد إلى قلبه ، إذا عرف أنه ابن كليب .

ولكن مكان الهرجس فى شيان غشيت غشاوة من الموم ، منذ قتل همام بن مرة ؛ ذلك بأن ناشرة قاتل همام كان قى تغلبيا ، أحسن همام إليه وعطف عليه ، بل حفظ حياته وليدا ، ورعا طفلا وقى ، حتى إذا بلغ مبلغ الرجال لم يذكر إلا أنه من تغلب أعداء شيان ، فقتل الرجل الذى أحسن إليه ، وغدر بمن كان حقه أكبر من حق الأبوة عليه .

(١) الفرند : ما يلمع فى صفحة السيف من أثر تموج الضوء .

فأخذ جماعة من الشبان يذيعون المطاعن على الهجرس ، ويحرضون على إخراجهم من بينهم حتى لا يصيبهم بمثل ما أصابهم به ناشرة . وسمع الهجرس ما يقولون فيه ، فدخلته الوسوس والشكوك ، واشتملت فيه الكبرياء والأنفة ، وضاق صدره بالإقامة في قوم يقول قائلهم عنه إنه ليس منهم . فما زال بأمة جليلة حتى أخبرته بحقيقة أليه . بعد أن هدها بأن يسير في الأرض فلا تدرى أين يقيم ، ولا أى البلاد تشتمل عليه ؟ .

وما علم أن أباه كليب ، حتى أظلمت الدنيا في عينيه ، ودارت به الأرض ، وخر صعيقاً ، ولم يفق من غشيته حتى كان قلبه قد استقر على أن ينتقم لأبيه ، وأن يلحق بعد ذلك بأعمامه وذوى صلبه . وجعل يدير الحيل ، ويغتم الفرص ، حتى حقق غرضه وأنفذ قصده ، فطعن خاله جساساً ، وأسرع هارباً حتى لحق بعمه المهلهل في منازل تغلب .

فكان هذا الحدث تنمة الأحداث ، وقاصم الظهور ، ولم يبق لشيان بعده من بأس ، فقد ذهب بذهاب جساس آخر من بقى من أبطالها ، وهيض جناحها ، وكسرت شوكتها .

وبقى الشيخ مرة في شيان وحيداً ، قد أحنت ظهره السنون المتطاولة ، وعصفت به أحداثها المتعاقبة ، واجتمع عليهم مصاب الهزيمة ، وحزن فقد الأعراء من أبنائه ومن فرسان شيان الذين قصفتهم الحروب واحداً بعد واحد ، وتركهم مغفرين في الأودية تنهشم السباع وجوارح الطير . فتضعضت نفسه ، وانطفأت فيه سورة " الكبرياء التي كانت من قبل تدفقه وتجمع به ، فلم يجد بداً من أن يسعى إلى مصالحة المهلهل ، والتذلل له حتى يحفظ على قومه البقية الضئيلة التي بقيت لهم من ذراري المستقبل . كان لا بد له من مصالحة المهلهل ، إذا شاء أن يبقى في شيان باق من هذه الصبية الصغيرة ، التي كان يراها تسعى حوله ، وليس فيهم إلا من فقد أباه ، أو عمه أو أصيب في بعض إخوته . لم يبق في شيان إلا هؤلاء الضعفاء ، بعد أن أفنى المهلهل في وقائعه كل من استطاع الحرب من كهول وشبان . ولم يجد الشيخ مرة من يلجأ إليه إلا الحارث بن عباد سيد بني ثعلبة ، ذلك الذي اعتزل الحرب منذ أولها ولم يرص أن يشارك قومه البكرين في ميادينها ، لأنه لم يرص عن ظلمهم وبغيهم في قتل كليب ، وإصرارهم على الظلم إذ أبوا أن يرصوا بني عمهم التغليين في دمه الكريم .

لجأ مرة إلى الحارث بن عباد وخضع له يستلين قلبه ، ويستعطفه على تلك البقية الضعيفة

من شيان ، وطلب إليه أن يبعث إلى المهلهل فيرجوه أن يقنع بما أصاب من دماء بكر ، وأن يمن عليه بالصلح فقد صار هامة يومه^(١) أو غده ، فهو لا يحرص على شيء إلا أن يدع هؤلاء الصبية من شيان فرصة الحياة . فرق له الحارث ولم يشأ أن يزيد آلامه بلوم ، أو أن يذكره بما مضى من بغيه وكبريائه . وخف إلى معونته مبادراً ، فأرسل إلى المهلهل وقد أرجوه أن يعود إلى مسألة بنى عمه بعد أن أصاب منهم ما أصاب في ثأره ، وأراد أن يسلم بقية الحقد من قلب المهلهل ، فبعث إليه مع الوفد ولده بجيراً بكتاب قال فيه : « إني مرسل إليك ولدى بجيراً وهو عندى حبيب ، وفوضت إليك الأمر فيه ، فإن لم تكن رضىت إلى اليوم بمن قتلت من شيان فدونك ابني جعلت فداءك ! فإما قتلته بأخيك الكريم فهو كفاء له ، وإما أطلقته متكرماً إذا رأيت أن تمن به على . وأنا في الحالين راض ما دمت تعود بعد ذلك إلى السلام ، وترضى بإصلاح ذات البين ، فقد مضى من الحين في هذه الحروب الطويلة من كان بقاؤه خيراً لنا ولكم » .

ومضت أيام بعد سير الوفد إلى المهلهل ، وكان مرة ينتظر عودتهم في قلق وهففة ، وقد ملك عليه الحزن قلبه ، فلم يدع فيه مكاناً لتجمل أو اطمئنان . وكان في يوم من هذه الأيام جالساً في فناء منزله ، وإلى جانبه صديق له من بنى عمومته ، يحاول أن يعزبه ويخفف عنه ، ولكن اليأس كان يملك على الشيخ كل أمره ، فكان لا يتألك نفسه من البكاء . فقال له صاحبه :

— أما تتجمل بالصبر يا أبا الحارث ؟

فقال الشيخ والحسرة تغلبه : « ماذا بقي لي في الحياة يا أبا مالك حتى أتجمل وأصبر ؟ إن هما إلا يومان أقضيهما في البكاء ثم أمضى » .

فقال أبو مالك عاطفاً : « لئن بكيت يا أبا الحارث لقد حق لك البكاء . ولكننا كنا ننأى بصبرك ونثبت بباتك . فلنسنا نملك اليوم معك إلا الرثاء لأنفسنا لما فقدنا من أسوتك » . فقال مرة متهدداً : « واحر قلباه ! لم يبق لي أحد من ولدى . لم يبق لي إلا هذه الصبية الصغار من أبنائهم ، وقد حكم الدهر على أن أعيش لأراهم حولي ضعافاً . . . واحر قلباه يا همام ! واحر قلباه يا جساس ! »

ثم أخذ يبكي بكاء مرّاً ، وصمت جليسه ينظر إليه في حزن عميق . وأقبلت عند ذلك

(١) هامة يومه أو غده : أى يموت اليوم أو غداً .

امرأة تسير في بطاء ، تنعثر بأذيال ثوبها الأسود ، وتمسح بعينها بطرف خمارها الذي أسدله على وجهها ، تخفى تحته عبراتها . فلما صارت إلى جوار الشيخ ، وقفت صامتة تنظر إليه لحظة ثم غلبتها العبرة ، فجعلت تنشج ووضعت كفها على عينها .

فتنبه الشيخ إليها عندما سمع شهادتها ، فنظر إليها بعينه الكليلتين^(١) ، وقال بصوت امتزجت فيه بحة البكاء بهزة الإشفاق :

- جليلة ؟

فقالت المرأة من بين شهادتها : « نعم جليلة يا أبى . جليلة الشقية يا أبى ! »

فد الشيخ إليها يديه المرتعشتين وقال بصوت متهدج : « تعالى يا ابنتى ، اجلسى إلى جوارى ، وامزجى دمعك بدمعى فقد أصبحت مثلك لا أستطيع إلا البكاء » . ثم جعل ينشج مثلها نشيجاً مرّاً .

فجلست جليلة إلى جنبه ، وضعت يدها على رأسه وأسندت رأسها باليد الأخرى وأخذت تشاركه في البكاء . فلم يقو أبو مالك على البقاء معهما فقام عنهما ، وذهب وهو يرفع يده إلى عينيه ليمسح دموعه مواساة لم يستطع أن يمنعها . ومضت على الوالد وابنته ساعة في البكاء ، وكأن الدمع قد أزال عنهما بعض وجوههما وفك من عقدة الحديث بينهما ، فالتفت مرة إلى جليلة قائلاً : « كفكى دمعك يا بنيتى ! »

فمسحت المرأة بكفها على ظهر أبيها وقالت : « لست أدري يا أبى ماذا أقول لك . لم أجد في نساء العرب من هى أشد منى نحساً . ولا أبلغ منى شقاء ، حتى لكأن الزمان لم يجد سوى غرضاً ! »

فمد الشيخ يده إليها فأخذ يدها ولكنه لم يتكلم .

فمضت المرأة تقول ، ولا تزال تنشج بين كلماتها : « لم يكف هذا الزمان ما أصابنى بقتل زوجى وفجيعتى بإخوتى وأبناء إخوتى وأعمامى ؛ فأبى إلا أن يجعلنى دائماً بين القاتل والمقتول ، ويقف بى أبداً بين السنان الطاعن والقلب المطعون . قتل زوجى وكان قاتله أخى ، ثم قتل إخوتى وقومى فى ثأر صاحبي ، فكان الانتقام له يتر أعضائى ويقطع أوصالى ، ثم حتم على أن يكبر ولدى الهجرس بين ظهرائى قوم أبى ، وهو يحمل فى دماثة عداوتهم ، ويضم بين جنبيه قلباً يطالبه بالثأر منهم ، حتى انتهى أمره إلى ما انتهى إليه من فجيعتى بآخى إخوتى الذى

(١) الكليلتين : الضميتين .

أكرمهم وورباه ، وزوجه بابنته وواساه بنفسه . ثم سار إلى قومه ليشاركهم في حريمهم على قومي ، فقلبي عليه يتحرق ومنه يتمزق ، إن أصاب أصابني ، وإن أصيب أثكلني واحر قلباه ! وأين الموت مني يا أبتاه ؟ »

وكان لقول جليلة عند الشيخ أثر أبليغ من أثر التعزية ، فجف دمعها ، وسكن نشيجها ، وهدأت نفسه منذ وجد مصاب ابنته أفدح من مصابه ، ورآها أجدر منه بالمواساة وأحق بالرحمة . ورفع بصره الكليل إليها ينظر في وجهها ، فاعترضته سحابة من الظلمة تغشاه ، ولكنه استطاع مع ذلك أن يدرك ما أصاب ابنته الجميلة من تغير وتبدل . لقد ألته الموم كل تلك السنوات عن أن يملأ عينيه منها ، ولم يلحظ فعل السنين فيها ، فلما رآها عند ذلك رأى امرأة ناحلة شاحبة : وجه علته الغضون^(١) ، وبشرة تكمشت ، وعود ضئيل ، ونظر كليل ، وجسم منهدم ، ونفس يفيض منها الحزن واليأس ، ففسى حزنه في لحظة ، وجعل يحاول التخفيف عنها ، وغاض دمعها وأخذ يعمل على تخفيف دمعها ، قال : « لقد مضى دهر على قتل كليب ، ومضى بعده من الأعزاء من سلكوا سبيل الماضين قبلهم . وهل في الحياة بقاء يابتي ؟ ولئن كان مصاب جساس حديثاً ، يصيب القلب لقرب عهده : فإن حزني عليه أذهلني عما كان يليق بي . ولم يكن المهجرس في قتله يابتي إلا أحد العرب يثار لأبيه ، ولعل هذا المصاب يكون آخر الدماء ، ولعل ذلك الضَّبَّان^(٢) القاسي مهلهل بن ربيعة يجد في قتل جساس ما يروى ظمأه ، ويكفيه من ثأره » .

فوقعت كلمات الشيخ في قلب جليلة موقع الدهن على قرحة الحريق . فمسحت دموعها وخفت شدة نشيجها ، وقالت وهي أقل بأساً « وبماذا أجاب المهلهل على رسالتك يا أبي ؟ »

فقال الشيخ بعد صمت قصير : « لعل الرسل يعودون اليوم . لقد كان موعدهم أمس ولكنهم لم يعودوا » .

وهمت جليلة أن تستمر في حديثها ، ولكن أبا مالك أقبل عند ذلك مسرعاً نحو الشيخ ، فعلمت أنه يريد التحدث إليه . فقامت وذهبت نحو الخيام ، وقد أسدلت خمارها على وجهها ، ولا تزال عيناها تبضان^(٣) .

(٢) الضبَّان : الظالم الجائر .

(١) الغضون : الشئ والتكسر .

(٣) تبضان : تدمان .

ووقف الرجل عند الشيخ لحظة ثم قال بعد تردد قصير : « لقد عاد الرسل إلى الحارث ابن عباد » .

فرفع الشيخ رأسه بحركة سريعة ، وقال بلهفة : « وما خبرهم ؟ »
فقال الرجل بصوت أجش مخيف : « كان رد المهلهل قتل بجير » .
فنهض الشيخ يتحامل ولا يتقوى على النهوض ، وأسنده صاحبه حتى وقف على رجله مترنحاً ، ثم قال في فزع وبأس : « قتل بجير ؟ قتل بجير بن الحارث ؟ »
ولم ينتظر جواباً على سؤاله ، بل سار مضطرب الخطوات ، وأبو مالك يسنده من ذراعه وقصد نحو خيام الحارث بن عباد .

كان الحارث بن عباد في فناء خيمته عندما جاء الوفد إلى الحى عائدين من رحلتهم إلى المهلهل بن ربيعة . وكانت زوجته أم الأغر ابنة ربيعة أخت كليب والمهلهل قاعدة عند أطراف الخيام ، تنتظر كعادتها كل يوم عودة الوفد لكي ترى ابنها الحبيب عائداً معهم ، فإنها أحست منذ أرسله زوجها أن فلذة كبدها يسير مع ذلك الوفد متعرضاً للهلاك . كانت أم الأغر تعرف أخاها المهلهل ، وكانت تحس أن الرحم لن تلين قلبه ولن تعطفه على ولدها الحبيب ، لأن دم كليب قد طمس على قلبه ، فلم يبق فيه محلاً لرحمة ولا مودة . ولما رأت الرسل مقبلين وحدهم ، أحس قلبها بما كان كأنها شهدته بعينها ، فقامت مسرعة تسأل في لهفة عن ولدها سؤال الواله المشدوه ، فأطرق الرسل ومضوا في سبيلهم نحو خيمة زوجها صامتين ولم تقوألستهم على النطق أمام الأم الثكلى . فاشتعل قلب المرأة وصاحت في لوعة ، وولولت تنوح في حرقة ، وسمعتها نساء الحى فأقبلن نحوها سراعاً وأجبنها بالعويل حتى اشتعل الحى كله بالصياح والبكاء .

وقام الحارث مسرعاً ليتعرف مبعث الضجة المنتشرة ، فلما رأى الرسل عائدين وحدهم وليس فيهم يجير أدرك ما كان ، ولكنه ملك نفسه وكبت ما في قلبه . وذهب بين الخيام يهدد ويسب ويؤنب وينهى ، واتجه إلى امرأته وقال لها عابساً بصوت كهدير الفحل : « يا أم الأغر لا أرين إحداكن تبكى أو تصيح ، ولا أسمع منكن صوت نجيب أو عديد ، فوحق مناة إن ابني لنعم القتل . كافأ خاله وأطفا ثأره ، وأنا بقتله راض ، وليس من قومي بنى قبس ابن ثعلبة من هو أكثر منه يمناً ولا أكرم مقتلاً . فإنه قد أصلح بين ابني واثل وحقق ما بقى من دمائهم » .

فخمدت الأصوات من رهبة السيد الصارم ، إلا نشيج الأم الناكل وهى تحاول كتمان صوتها طاعة لزوجها ، وتأبى حرارة كبدها أن تطيع . فانصرف الحارث إلى الرسل ، ومضى بهم إلى فئائه ، ليسألهم عن جواب كتابه . فاتجه إلى كبير الوفد وقال هادئاً : « ماذا قال المهلهل يا أبا ضبيعة ؟ »

فوقف أبو ضبيعة حيناً صامتاً ، وكان قصيراً دميماً . فنظر إليه الحارث وقال في شيء من الحق : « قل جوابك أيها الرجل » .

فاقترب الرجل من الحارث كأنه يريد أن يهمس في أذنه ، ولكنه لم يقدر على أن يبلغ

كفنه فتردد وبني مطرقاً . فعرف الحارث أنه لا يريد أن يتكلم في ملأ بني ثعلبة ، فجذبه من ذراعه في شيء من العنف حتى تنحى به إلى جانب وقال غاضباً : « تكلم يا جحدر . أجبني بما قال المهلهل ، قل ولا تخف من قوله شيئاً فلن يبلغ من القسوة مثل قتل ولدي هل رضى المهلهل بدم يجير ؟ »

فنظر جحدر إلى الأرض وقال بصوت خافت : « ماذا أقول لك ؟ إذا شئت إيجازاً قلت لك إنه قتل بجيراً ولم يروبه غلته . »

فصر الحارث على أضراسه وقال للرجل : « إذن فلتحمل إلى أدنى كل ما كان منه . قل ولا تدع أمراً إلا وصفته . »

فأخذ جحدر يقص على الحارث ما كان من المهلهل منذ ذهب الوفد إليه ، وجعل يفصل له وصف ما رأى من عنفه وسوء رده ، حتى بلغ وصف ما كان منه عندما رأى بجيراً وسأله عن اسمه . فأغمض الحارث عينيه وتنفس نفساً عميقاً وقال لجحدر :

« دع ذلك الحديث ولا تطل فيه . لقد قتله ! »

فنظر إليه جحدر متردداً وأمسك عن الكلام لحظة ، فصاح به الحارث قلقاً :

« امض ! امض في حديثك . أليس قد قتله ؟ »

فقال جحدر وهو مطرق : « لقد وددت أننى لم أشهد ذلك الأمر ولم أسع فيه . فإن تلك الصورة لا تزال ماثلة أمام عيني لا تفارقني في سير ولا في إقامة ، ولا تبعد في ليل ولا في نهار . ولو كانت دماء تغلب تملأ البحار التي تحيط بالأرض ما حسبتها تروى غليل بني ثعلبة . لقد قتله وهو يقول : يؤ بشع^(١) نعل كليب ! »

فارتد الحارث إلى الوراء خطوة ، ونظر إلى محدثه وقد قلصت عضلات وجهه وزوى

حاجبيه وصاح بصوت أجش : « ماذا قلت ؟ بشع نعل كليب ؟ »

فهز جحدر رأسه ونظر إلى الأرض وهو يقول في حزن : « نعم بشع نعل كليب . »

فصاح الحارث : « ألم يكن في تغلب رجال ؟ ألم يكن في تغلب رجال ؟ »

فقال جحدر : « كان امرؤ القيس بن أبان يحاول أن يرده فلم يستطع . لقد بالغ في

النصح والرجاء ، ولكن صوته غرق في العاصفة الهوجاء . »

فرفع الحارث يده مقبوضة فوق رأسه وعض على نواجذه وتنفس نفساً مضطرباً كأنه

(١) يؤ : نلتقتل بشع نعل كليب فانت كنه لذلك الشع .

يَحْتَنقُ ثُمَّ قَالَ : « ويل الداعر^(١) من غدره ! يا ويل زير النساء ! » ثم سار مسرعاً نحو مضارب خيامه يهرول في اضطراب وقلبه يحترق من الغيظ وكان في سيره يبعث ألفاظاً متقطعة كأنه يخاطب نفسه ، ويتبع كل لفظ منها آهة مبحوحة ، وكان جحدر والوفد يسرون وراءه حتى إذا اقترب من منزله نظر وراءه إلى جحدر وقال في صرخة مكتومة : « لقد بر الخبيث بعهدك يوم قال إنه لن يدع شيئاً لكليب حتى ينتقم له ، حتى الشَّع الذي كان يربط به نعله . فكان ولدى قتيل ذلك الشَّع » .

ثم ضحك ضحكة مخيفة حتى ظن جحدر أن الرجل قد جن من وقع مصابه . فلما صار الحارث بين خيامه وقف وصاح ينادي عبيدين كانا في رحبة الحي وقال بصوت نائر غاضب : « قُرباً مربوط النعامة مني ! » .

ثم ذهب إلى خيمته وغاب لحظة وخرج ورمحه في يده وهو يهزه هزاً عنيفاً ويشمر كرم ثوبه عن ذراعه ، وصاح بصوت يُدوى :

قُرباً مربوط النعامة مني لَفِحت حرب وائل عن حبال

ثم وقف وركر رمحه في الرمال وقد غلبه الغضب وامترج في قلبه حقد الموتور بحزن الأب المفجوع ، ونظر فرأى امرأته جالسة في جانب الخيمة تبكي وتحاول إخفاء صوتها . فنظر إليها ثم نظر إلى جحدر وصاح كأنه يخاطبه :

قل لأم الأغر تبك بجيراً حيل بين الرجال والأموال
فلعمري لأبكين بجيراً ما أنى الماء من رؤوس الجبال
لهف نفسي على بجير إذا ما جالت الخيل يوم حرب عضال
قتلوه بشسع نعل كليب إن قتل الكريم بالشسع غال

ثم صمت قليلاً كأنه غَصَّ بريقه ، فانفجرت أم الأغر صائحة كأنها كانت تنتظر تلك الكلمات لكي تفرج عن نفسها بالعويل والبكاء . وأسرع إليها النساء فعاودن ما كن أمسكن عنه من التذب والعويل واشتعل الحي كله بالبكاء . واستأنف الحارث القول بعد حين وهو ينظر بعينين شاخصتين نحو الأفق لا يلتفت إلى جمع بني ثعلبة المتراحم حوله .

فصاح في حزن وغیظ :

يا بجير الخيرات لا صلح حتى تملاً اليد من رؤوس الرجال
لم أكن من جناتها علم الله وإنى لحرها اليوم صال
ثم صمت وأطرق حيناً لا يقوى على الكلام . ثم انتفض فجأة وركز رمحه في الرمال
وصل سيفه وهزه فوق رأسه وعاد إلى إنشاده بعد أن استطاع الكلام فصاح بصوت يشبه هدير
الريح بين الصخور :

قرباً مربوط النعمامة منى لقحت حرب وائل عن حبال
فلعمري لأقتلن بجير عدد الذر^(١) والحصا والرمال
قرباً مربوط النعمامة منى ليس قولى يراد لا بل فعلى
ثم أعمد سيفه وألقى برمحه أمامه في وسط حلقة الرجال وتحرك مهولاً راجعاً إلى خيمته
وهو بهمهم ويهذر ، فجعل يبحث عن سلاحه ودروعه وأخذ قوسه التي كان قد نزع عنها وترها
وأخذ قطعة من الجلد كانت في ركن من الخيمة وخرج على قومه وهو يربط طرفها في رأس
القوس ويقول في أثناء ذلك كأنه يخاطب نفسه :

قرباً مربوط النعمامة منى قرباهما وقرباً سربالى^(٢)
قرباهما وقرباً لأمتي^(٣) زعفاً^(٤) دلاصاً^(٥) نرد حد النبال
قرباهما لمهفات حداد لقراع الكهول يوم التزال
وأخذ يذهب إلى خيمته يجهز فيها سلاحه شيئاً بعد شيء ، وهو كلما جهز شيئاً خرج
به وأنشد قومه بيتاً أو بعض أبيات ، ثم يرجع إلى الخيمة فيجهز شيئاً آخر يعود بعده إلى رحبة
الحى ليستمر في إنشاده المضطرب ، حتى تجمعت في الرحبة كومة من الدروع والسلاح .
في هذه الساعة كان الشيخ مرة قد بلغ منازل الحارث ورأى الفرسان ملتفين حول زعيمهم
الثائر ، فانفرجت له الجموع حتى اقترب من الحارث ومد يده إليه وقال له بصوت متهدج :
« مصاب جلل يا أبا بجير » .

فالتفت الحارث إليه ومد يده إليه مصافحاً وقد ملك نفسه حتى علا وجهه السكون وزال

(١) الذر : الهباء المشرق الهواء .

(٢) السربال : الدرع .

(٣) اللأمة : أداة الحرب كلها من درع ، وبيضة ، وسيف ، وغيره .

(٤) زعفاً : سريعة القتل .

(٥) الدلاص : اللين البراق الأملس .

عنه اضطراب الغضب ، واكتسى بدل ذلك هدوءاً ينم عن عزيمة ثابتة . وقال يخاطب الشيخ : « ستدوق تغلب عاقبة ظلمها » .

وكانت فرسه النعام قد جاءت إليه عند ذلك يقودها العبدان فاقترب منها ومسح رأسها وهي تصل وتتمسح به . ثم اخترط^(١) سيفه وقبض على شعر ناصيتها فجزه ، ثم قبض على شعر ذيلها الطويل فقطعه ، وقد سكنت الفرس وظهر عليها وجوم يشبه أن يكون حزناً وقال كأنه يخاطبها : « ليس بعد اليوم تدليل » .

ثم دفعها إلى العبدین الواقفين عند رأسها في صمت وخشوع وقال : « قرباها مني فالليلة نسير إلى قتلة بجير » .

ثم أخذ الشيخ مرة من تحت ذراعه وسار به إلى خيمته وتبعهما جحدر وبعض كبار قيس بن ثعلبة وانصرف شبان الحي ليعدوا خيولهم للغزوة العاجلة في تلك الليلة .

(١) اخترط سيفه : استله .

كان صباحاً عاصف الرياح نافر الرمال ، وكان الحر على وقده ولم تطلع الشمس بعد ، تكاد الأنفاس تختنق منه ؛ حريشقق الشفاه ويحرق الوجوه ، ويحرج الصدور .

وكان فرسان تغلب مجتمعين واجمين لما بلغهم من تحرك قبائل بكر إليهم مرة أخرى وإقبالها عليهم بالعدد الكبير والسلاح المشحود ، والخيل المسومة ، ومعهم الحارث بن عباد في قومه بني قيس بن ثعلبة .

لقد تألب بنو بكر لمساعدة شيان منذ غضب الحارث بن عباد لقتل ابنه بجير ، والتف حولهم من كان قعد عن نصرتهم من العشائر والبطون ، وضعفت تغلب بمن انصرف عنها من حلفائها حتى لم يبق معها إلا قبائل النمر بن قاسط . فذاقت في عام واحد مرارة الهزيمة الطاحنة مرة بعد مرة ، وجعلت ترتد من موطن إلى موطن ، وتترجح من موضع بعد موضع ، حتى ألفت رحالها أخيراً عند (قضبة) في أطراف نجد من الشمال . ولكن الحارث بن عباد لم يضع ثأره ، ولم يهدئ من حقه ؛ بل كان لا يزال يثبت في أثر تغلب ليستقم لقتل ابنه الحبيب بجير المظلوم . وكانت شيان تقبل معه على الحرب تحت راية الحارث بن همام بن مرة ، كأنها الذئاب الجائعة ، لتفسل عن كرامتها ما أصابها من هزائم تغلب في طوال السنين المنصرمة .

اجتمعت تغلب في ذلك الصباح الفاتظ في رجة جلالها^(١) يتشاور قادتها فيما هم فاعلون في لقاء عدوهم المقبل ، فقد سمعوا أنه مغير عليهم بجيش خميس ليعيد عليهم الكرة بعد انتصاره الأخير في وادي القصبيات ، يقوده الحارثان : الحارث بن عباد ، والحارث بن همام ، الذي آلت إليه زعامة شيان .

جلس شيوخ تغلب ، وأصحاب الرأي فيها ، وفرسانها الشجعان من الشباب ؛ وقد لقوا اللثم على وجوههم انقاء الرياح اللافحة ، وعصف الرمال يزيد نفوسهم الثائرة ضيقاً . ووقف الفارس الكهل امرؤ القيس بن أبان يتكلم ، فأرهف الجلوس آذانهم لاختطاف كلماته من أذيال الهواء الصახب . فقال : « أى قوم لا تردوا اليوم نصيحتي فقد جربتم من عواقب إغفالها ما كان أولى بكم لو تجنبتموه . لقد نصحت المهلهل ألا يقتل الفتى ابن الحارث فلم يقبل نصيحتي ، ولقد رأيتم ماذا حل بنا من وراء بغيه ، رأيتم تألب بني بكر علينا

(١) الحلال : جمع حلة وهي منزل القوم .

بعد أن كانوا عوناً لنا ، فلا يمضى يوم حتى نسمع بحليف منهم ينفض من حولنا ، أو نصير منهم ينضوى تحت لواء عدونا ، وإذا تمادى الأمر بنا بعد اليوم لم نأمن أن يحل بنا من الكوارث أمثال ما أنزلناه بآل شيان في تلك السنين . فالرأى عندى أن نرحل من هذا القفر الأجرد ، وحسبنا ما لقينا فيه من هزيمة بعد هزيمة ، فإذا نحن عدنا إلى ديارنا

وأراد امرؤ القيس أن يمضى في قوله : لولا أن قام شاب وسيم من طرف الجماعة ، وصاح به غاضباً : « حسبك يا امرؤ القيس من حقدك على المهلهل ، فوحي مناة إنك لا تقول قولك هذا إلا حسداً له ومنازعة لسيادته » .

وتحرك لسماع هذه الكلمات جماعة كان جلهم من شبان تغلب الذين لا يرون في المهلهل إلا بطلهم المهيّب ، وفارسهم الذى لا يبارى ، يحبون أن يسيروا وراءه في كل موطن وبطيوعه وإن مضى بهم إلى برّك الغمام من أقصى الأرض ، فقد تعلقت نفوسهم به ، وحل الإعجاب به من قلوبهم حيث لا تبلغ النصيحة .

وارتفعت أصوات هؤلاء من جوانب الجمع يقولون : « صدقت يا هجرس ! صدقت يا هجرس بن كليب ! بعداً للجبناء ! لا نطيع غير المهلهل » .

ونظر الشيوخ حوهم مترددين ، وقام بعضهم يريد الكلام فلم يقوَ على إغراق ضجة الشباب النائر ، فلم يجد امرؤ القيس بن أبان بداً من الصمت ، ومضى ذاهباً عن الجمع وهو غاضب حتى قبع معتزلاً في حِلته . ونهض القوم بعده في اضطراب وضجيج ، فانصرف الشيوخ واجمين فرادى وثناء ، واجتمع الشبان في صعيد واحد وقد جرفتهم الحماسة ، وساروا والهجرس ابن كليب في طليعتهم قاصدين حلة المهلهل ، يهتفون به ويحمدون العهد على طاعته . فقد كان المهلهل في هذا اليوم مقبلاً في بيته لم يحضر في ذلك الجمع من أثر جراح أصابته في آخر وقعة أصابتهم بكر فيها ، وقعة القصبيات .

كان المهلهل مستلقياً في فراشه ، وكانت ابنته سلمى تمسح الدماء عن جرح عميق في أعلى ذراعه ، بعد أن ضمدت سائر جراحه ، وكانت تحدثه عن زوجها وابن عمها الهجرس ابن كليب ، الذى تزوجها عندما لاذ بعمه في بني تغلب . ولما انتهت من غسل جرحه بالماء الساخن ذرت عليه رماداً من أعواد طرفاء محروقة ، ولفت حوله ضمادة من الصوف . فقال لها أبوها :

— أما قال لك الهجرس أين خرج اليوم ؟ لقد بكر في الخروج قبل أن أراه .

فقالت له سلمى مترددة : ذهب إلى الناس ليرى ماذا يصنع بهم ابن أبان .
فتحرك المهلهل في مكانه قلقاً وأراد أن يمد يده إلى سيفه ، ولكنه ردها ممتعضاً من الألم
الذي أحسه عندما حركها . ونظر إلى ابنته وقال لها في غيظ : « لقد تحرك ابن أبان منذ اليوم .
أويحسب أن هذه الجراح تقعدني في كسريتي ؟ لا بحق مناة ، ما أدعه ينفث سمه . ولأسحقن
رأسه قبل أن يستطيع أن يبلغ مأربه » .

ثم تحامل حتى قام وقال لسلمى :

« ألقى على ردائي وشملتى . فلاذهبن إليهِ . لأهشم أنفه قبل أن يرفعه » .

فقالت سلمى : « لا يرعك ابن أبان يا أبت ، فإن الهجرس هناك يرى ويسمع .
ولا أظنه يدع له مجالاً لإفساد الناس وتفريق كلمتهم . لقد حدثني الهجرس عن أصحاب له
تواعدوا على أهبة ، ليفسدوا على ابن أبان تديره ، وقد أخذوا السلاح وجعلوه تحت ثيابهم ،
فاذا لم يستطيعوا تدارك أمره باللفظ حكوا بينهم وبينه السيف » .

فاطمأن المهلهل لقولها شيئاً ، ولكنه أطرق قليلاً ثم رفع رأسه وقال :

« ما ينبغي لى أن أطيل احتجابى عن الناس يا سلمى ، قد عرفت الناس ، فهم لا يذكرون
من تطول غيبته . هاتى شملتى وردائى » .

فلم تستطع سلمى إلا أن تطيع أباه ، فذهبت إلى ركن من الخيمة وأخذت تلتمس
لأبيها بعض ما اعتاد لبسه في نوادى قومه من ثياب الدباج الأصفر ، والقباطى البيضاء وبرود
اليمين الموشاة ، وحملت من ذلك شيئاً في يديها ليختار منها ما يحب . ولكن ضجة كانت
تقترب عند ذلك ، فيها أصوات ترتفع حيناً وتخبو حيناً . فوقف في مكانها لتسمع ، وأصاخ
المهلهل بأذنه في شيء من الدهشة ، ثم اقتربت الأصوات واتضح ، فإذا بها صيحات
تهتف باسم المهلهل سيد ربيعة ، وميزت منها سلمى صوت زوجها الحبيب الهجرس بن كليب ،
فتبسمت وتبسم المهلهل ، وقد وقع في كليهما أن الهجرس قد حمل معه تغلب وأفسد وحده
تدير ابن أبان . وألبست سلمى أباه ووضعت ثوباً من الدباج على كتفه ، فلما صار الهجرس
وأصحابه في رجة الحى خرج عليهم المهلهل هشاً بشاً ، فما كاد جمع الشباب يراه حتى
علت أصواته في نحية صاخبة ترددت أصدائها بين ثنايا الشباب ، فتبسم المهلهل وكرر رمحه
في الرمل واتكأ عليه يسراه ، وقال بعد أن هدأت الأصوات :

- مرحى يا شباب تغلب ! لقد أقررت عيني ، وأزلتم ألى . إن جراح الحرب التى مزقت

جسمى تنطق مرجحة بكم ، كأن فى كل منها لساناً يتحرك بشكركم . لقد ثارت تغلب منذ سنين طويلة تطالب بدم بطلها الذى لم يكن فى العرب له كفاء ، وأميرها الذى عجز النساء أن يلدن مثله ، وإن تطاول الدهر . ولم يكن فى تلك الدماء التى أريقت من العدو ما يقوم بدمه أوينى لنا بحقه . بل لقد قتل من أبطالنا فى مواقعهم من لا تشفينا دماء بكر جميعاً من وترنا بهم . فليس بيننا وبين القوم إلا حد السيوف ، وأسنة الرماح . لا نوادعهم ولا نخيم عن لقاءهم حتى نغنيهم تقتيلاً ، ونقطع أوصالهم تقطيعاً . واكليها ! هل نرجع السيوف إلى أغمارها ولا يزال فى بكر شريف ؟ واتغلباه ! هل ندع دماء من قتل من تغلب ولا يزال بعدوكم جمع . ليس بيننا وبينهم إلا طعن الكلى وضرب الرقاب ، وتفليق الهام وتخريق الصدور . وإذا كان فى تغلب من زعزعت أول الصدمات فبدأ للجبناء ! ألا بدأ للجبناء ! فتلقف الجمع هذه الكلمة وصاح فى حماسة : « ألا بدأ للجبناء ! » وجعلوا يرددونها . وسكت المهلهل عند ذلك فإن الضجة التى علت من صيحات الجمع المضطرب أغرقت آخر كلماته فلم يستطع المضى فى الحديث . وعاد السيل النازل من ساحة المهلهل وتفرق بين الأحياء منادياً للحرب ، فلم يبق فى منازل تغلب من تجرأ على أن ينطق بحرف فى ذكر امرئ القيس بن أبان .

ودخل الحجرس إلى خيمة عمه فحدثه بما كان من قول ابن أبان وما كان منه ثم قال :

- ولا أحسب الأمر ينتهى يا عماء إلى حيث انتهى إليه لو طال بنا المقام .

فقال المهلهل وقد عبس عبسة عميقة :

- أجل يا ولدى ! لن أطمئن وهذا الأرقم يتحين الفرص للوثوب . ولكن هون عليك

فما كان عملك ليخاف هذه الزواحف .

فقال الحجرس :

- إن امرأ القيس قد ذهب إلى منزله اليوم ولا أراه يجرؤ على أمر إلا بعد أن تنصره هذه

الفئة من الشيوخ .

فأطرق المهلهل حيناً ثم قال فى غيظ :

- وحق آلهة وائل ما هو بمنته حتى أذيقه عضة سيني . ولولا أن يقول الناس إن المهلهل

يقتل أصحابه لما أبقيت عليه منذ حين . لقد عرفته ورأيت خلافه على منذ نصحنى فى أمر بجير .

وإنه ما قال كلمته التي قالها بقصد النصيح ولا الخير ، بل قالها لتسير في الناس فتكون وصمة عار تلحق بي .

فقال الهجرس : « وإنه لا يزال يتحدث بها إلى الساعة . وكانت هي أولى كلماته في اجتماع اليوم » .

فقال المهلهل : « ويل له من خبيث ! إنه ليضلل الحق من قومي إذ يسمعون أنه نصحنى بالعفو عن الفتي المسكين ابن أم الأغر أختي فعصيته وقتلت الفتي بغير جريرة » .

فقال الهجرس : « صدقت يا عماء ، فقد رأيت أثر قوله في الناس منذ تكلم . فأخذوا يتهايمون فيما بينهم عما أصاب تغلب من جراء مخالفتك وقتل الفتي » .
فصاح المهلهل :

- أغرار وحق أوام يا ولدي ! ما بعث الحارث بولده إلى إلا وهو يأمرني بالكف عن حرب قومه . فلو خالفته وأبيت إلا الحرب لما كان منه إلا أن ينصر قومه . لقد عرفت منذ تحرك الحارث أنه إنما غضب لمن قُتل من بكر ، وأنه لا يريد إلا التماس الحيلة لإثارة الناس عليّ . فبعث بابنه بجير حتى يظهر للعرب جميعاً أنه قد أرضاني ورغب في إنصافي . ولو لم أقتل بجيراً لما عدل عن الحرب ، ولما انصرف عن نصره قومه . لقد عرفت أنه عدو منذ بعث إلى رسالته . وما كان ينبغي لي إلا أن أبدأ عدوي بالحرب قبل أن يبدأني .
وسكت لحظة ثم نظر إلى الهجرس وقال :

- دع هذا يا هجرس فليس يغني عنا القول . هي الحرب ، فلنمض إليها . سنمضي إليها قبل أن تلتئم هذه الجراح . هلم يا ولدي فلن نطيل الجبل لابن أبان ليمضي في مكره وكيده . لأحملنه على الحرب حملاً ، إذا لم يكن من الحزم أن أجمعه سني . هلم يا ولدي ، فالليلة نستعد للقاء عدونا .

ثم خرج وسار الهجرس إلى جواره يقصدان مجمع القوم في الطرف الآخر من المحلة .

تجهز بنوبكر للمسير إلى تغلب في وادي قضة ، وقد انتعشت وعاودها الأمل بعد الانتصار ، فلم تنطق الصبر . وأرادت أن تنتهز فرصة ما أصاب أعداءها من الوهن والجراح لكي تجعل الوقعة المقبلة قاصمة الظهر . وزاد من حرص بكر على الإسراع إلى مواصلة الحرب ما بلغها من أنباء الخلاف بين شيوخ تغلب وشبانها ؛ فقد سارت الركبان بأحاديث ما يضمره المهلهل لامرئ القيس بن أبان ، وما أحدثه المهجرس بن كليب من الفرقة بين شيوخ القوم وبين ناشتهم ، فعلموا أنهم إن صدموا عدوهم صدمة عنيفة لم يجدهو إلا مقسم الأهواء ، مشتت الآراء . فلم تقعدهم شدة الحر عن الاستعداد السريع ، ولم تنهم الرياح العاصفة المحرقة عن عزيمة المسير ، فاجتمعوا في ناديبهم في لباس الحرب يتشاورون في الخطة المقبلة . وكان فيهم فرسان من شيبان وقيس بن ثعلبة وعجل وحنيفة ، وفيهم الفارس الشاعر الذي ما زال برغم تقادم السن بطل الحروب ، الفند بن سهل سيد قبائل بكر باليمامة ، وقد أتى مع قومه لنصرة إخوانه عندما بلغه اعتداء المهلهل بقتل بجير . وكان الحارث بن عباد في صدر النادى وقد جلس حوله شيوخ العشائر والبطون في حلقة مفرغة ، وجلس سائر القوم صفوفاً منتظمة بعضها يتداخل في بعض .

ولما التأم الجمع وقف الحارث يتكلم فقال :

- يا فوارس بكر ! قد علمتم ما عقدنا عليه النية من السير إلى هؤلاء الظلمة حتى لا ندع لهم متنفساً من السلام لكي نذيقهم وبال ظلمهم ونقذف بهم في مصارع بغيهم . ولكنى أشفق أن تسيروا في وقدة هذه الحرور ، فهل ترون أن تؤجل المسير حتى تهدأ هذه الرياح ؟

ولما أتم قوله نظر إلى الحارث بن همام بن مرة سيد شيبان كأنه يدعوه إلى إعلان رأيه ، فتحرك الحارث يريد الكلام ولكن علت ضجة من الجمع لم يستطع معها أن يتكلم ، فترث وهو ينظر إلى من حوله في شيء من الارتباك . فوثب جحدر بن ضبيعة قائماً وكان قصيراً دميماً ، فما كاد يقف حتى زادت الضجة اشتداداً ، وتقاذفت نحوه ألفاظ الدعاية والفكاهة . فلم يرهبه ذلك ، بل أعلى صوته وقال بصوت حاد :

- على رسلكم حتى أقول كلمة .

وما كاد ينطق حتى رمته الرياح النائرة بلفحة رملية اضطرتة إلى أن يحول وجهه عنها ،

وانفجرت ضحكة عالية لم يتخلف عنها أحد من الشيوخ أو الشبان ، فضحك جحدر مشاركاً في المرح الشامل . ولكنه لم يجلس ولم يتردد بل صاح بصوته الحاد :

- كأتني بهذه الريح تريد أن تعدل بي عن رأيي ، ولكنني وحق أوال لا أنثني عنه وإن قدفتني السماء بصواعقها . لا بد أن نسير اليوم إلى قضة .

فعلت ضجة استحسان صحبته ضحكات ومداعبات ، وصاح قتي من آخر الجمع :

« قف يا جحدر فوق صخرة حتى نراك » .

فزادت ضجة الضحك علواً ، ولم يشأ جحدر أن يدع الفرصة بغير أن ينتهزها ، فوثب على كفتي قتي شديد قريب منه فوقف عليهما وقال ضاحكاً : « هل أغيب الآن عن عين أحد ؟ » ثم نزل سريعاً وهو يشارك في الضحك العالية التي لم تفت ، ثم أشار يده للقوم أن يهدؤوا ، فسكنت الأصوات ونظرت إليه العيون ومالت إليه الأسماع فقال جاداً :

- « نحن اليوم في جماعة لم يجتمع لنا مثلها من قبل ، فإذا نحن سرنا إلى العدو فاجأناه بما لا قبل له به . وكانت الموقعة القاضية » .

فتجاوبت الأركان بصيحات : مرحي ! أحسنت !

واستمر جحدر فقال : « ولكن لي عليكم شريطة قبل أن أفرغ من قولي » .

فصاح به أفراد من جوانب الجمع : « لك ما شرطت فاحتكم » .

فقال جحدر وهو يضحك : « لقد هممت أن أشرط لنفسي نصف هذا النوى الذي سنغتمه اليوم . ولكنني عدلت عن ذلك . وحسبي أن أشرط أمراً هو أهون عليكم منه . إذا نحن سرنا اليوم في جماعتنا هذه خشيت أن يختلط علينا الأمر فلا يميز أحدنا أصحابه من أعدائه ، وأخشى أن يخالطنا العدو وهو قليل فلا نجد دوننا من نضربه فيضرب بعضنا بعضاً في حماسة القتال » .

فنظر الناس إليه حبناً في صمت ، وقد عجبوا أن يمزج هذا الرجل العجيب هزله بمثل هذا الجدل الجاهم . ونهض الفند بن سهل سيد بكر اليمامة فقال :

- « أما إنها لكلمة حق صدق فيها أخى جحدر ونصح . فلقد أقبلنا عليكم منذ قليل بوجوه جديدة لم يسبق لكم عهد بها ، ولا بد لنا من علامة نتعارف بها » .

وأقبل الجمع بعضه على بعض يتحاورون في الحديث ، فقام الحارث بن عباد وما رآه الناس حتى خشعوا ، وهدأت الأصوات وتحولت إليه الأبصار فقال :

- أيها الإخوان ! لقد صدق أخى أبو ضبيعة إذ قال إنه يجب علينا أن نجعل لأنفسنا علامة نتعارف بها . وأرى أن نحلق رؤوسنا جميعاً فتكون تلك ميزتنا وسمتنا .
 فوثب جحدر على قدميه وقال فجأة : « وماذا يبقى لى إذا حلقت لمتى^(١) يا أبا بجير ؟ » .
 فعلت ضجة الضحك مرة أخرى واستمر جحدر يقول ضاحكاً : « أنتم ترون أن شعرى نصف قامتى . وبغيره يصبح لى وجه قرد أصلع ، فاتركوا لى لمتى ، وافعلوا ما شئتم فى لمكم » .
 فصاح قى من وسط الجماعة يمزح قائلاً : « اشترها منا ، فلن نتركها لك بغير ثمن » .
 فصاح جحدر فى جد : « أشتريها بأول فارس من العدو يطلع عليكم ، لكم على أن أقتل أول فارس من تغلب يقبل نحوكم » .
 فصاحت الجماعة : « قبلنا ! قبلنا ! »

فأشار الحارث بن عباد للجماعة أن تنصت إليه ثم قال : « لا بأس بهذا ! نبيع لجحدر لمتى . وأما نحن فنحلق لمتنا » .

فصاح الفند بن سهل ضاحكاً : « هذا إذاً يوم تحلاق اللسم » .
 فنظر إليه الحارث باسمًا وقال : « نعم هو هذا ! هو يوم تحلاق اللسم » .
 وسكت لحظة ثم قال : « وقد علمتم أن تغلب تقيم الآن فى قِصَّة وسط صحراء مقفرة . وسنكون فيها فى أرض غريبة لا نعرف موارد مياهها ، ولا ندرى لعل تغلب قد غَوَّرت آبارها وطَمَّت عيونها توقعاً لمسيرنا إليها ، فلا بد لنا من حيلة فى تدبير ما نحتاج إليه من الماء قبل أن نذهب إلى عدونا فى عقر داره » .

فصاح جحدر وقد وثب قائماً : « نأخذ معنا من الماء ما يكفيننا حتى إذا ما التحم الجيشان حملته لنا النساء وسرن من خلفنا ، فإذا عطشنا رجعنا إليهن لترنوى » .

فصاح به شاب ضاحكاً : « على أن لا يروى النساء الا حليقاً » .
 فقال جحدر : « لك على يا ابن أخى ألا أعود إليهن إلا معلماً . لن أعو إليهن إلا حاملاً هن أسيراً » .

وكان للفند بن سهل بتان قد وقفنا فى فتيات بكر عند أطراف الجمع يستمعن إلى الحديث ، وكانتا فتاتين ذَوَاتى جُرأة وشهامة .

(١) اللمة : شعر الرأس المجاور لشعمة الأذن .

فصاحت كبراهما : « نسروا لكم لنحمل الماء ؟ هذا لا نرضى به أبداً » .
 فتحولت الأنظار إليها وقال الحارث : « وماذا تريدن يا ابنة الكرام ؟ » .
 قالت الفتاة فى حماسة : « تحمل كل منا إداة^(١) ماء وهراوة غليظة ، فإذا مررنا
 بحليق طريح أسونا^(٢) جرحه وسقيناه ، وإذا مررنا بتغلي صريع قضينا عليه » .
 فعلت ضجة عامة من الجماعة - ضجة الإعجاب والأريحية ، وقال الحارث ناظراً
 إلى الفند : « لتكن ابنة الفند أول امرأة فى العرب أشركت النساء فى القتال ! »
 ثم نظر إلى الفتاة وقال : « هلمى يا فتاة ، فمثلك من تلد الأبطال ! »
 بعد ساعة كانت قبائل بكر تتحرك سائرة نحو الشمال ، وهى تملأ فضاء الأرض بالخييل
 والرجال ، والمطايا من الإبل فوقها القطعان من النساء تليها الروايا تحمل الماء ، وفى آخر القوم
 جاء العبيد يسوقون جنائب الخيل والإبل لتحل محل ما يقتل فى الحرب من الدواب .
 وكان اليوم التالى صنو^(٣) سابقه فى الحر اللافح والريج الثائرة والشمس المحرقة والرمال
 المسافية . واجتمعت فيه قبائل بكر كلها تحت لواء الحارثين : الحارث بن عباد على جناح
 والحارث بن همام بن مرة على جناح ، وأبطال القبائل كل منهم فى قومه يتساندون ويتعاونون
 فيما بينهم . والتقى الجيشان ، فكان أول من برز من بكر جحدر بن ضبيعة يلتمس ثمن شعره
 الذى لم يحلق ، واندفع إلى تغلب فجأة فاحتضن أول فارس طلع عليه ، ولم يكن التغلب
 على استعداد لذلك النوع من المنازلة ، فهى طريقة ابتكرها الحارث بن عباد وتعلمها منه فى
 ذلك اليوم جحدر بن ضبيعة : أن يهجم على عدوه فى سرعة البرق الخاطف ، فلا يضرب
 ولا يطعن ، ولكن يحتضنه ويعدو به راجعاً إلى قومه . وعاد جحدر بأسيره مطروحاً أمامه على
 ظهر الفرس وهو يحرك رجله وذراعيه فى الهواء يائساً . فضحك فرسان بكر وصاحوا مرحبين ،
 وغضب فرسان تغلب وتصايحوا يحرض بعضهم بعضاً على دفع الهجمة بأخرى مثلها ، وما هو
 إلا قليل حتى التحم الجيشان فى الحرب عامة .
 ومضى معظم النهار والقتال على استعاره ، الحارث بن عباد يطعن ويضرب فى تغلب ،
 والمهلهل مع جراحه يفرى^(٤) فرياً فى بكر . ودفع جحدر المسكين ثمن لأمته عظيماً ، فإنه

(١) إداة : إناء صغير من جلد يحمل فيه الماء .

(٢) أسونا : داوينا .

(٣) الصنو : النظير المائل .

(٤) يفرى فرياً : يقطع ويشتت .

ما زال يحارب حتى جرح ، فلما مرت به فتيات بكر حبيته تغلياً ، فطلب منهن شربة ماء فأهوين عليه بالهراوى ، وهو كلما صاح بهن أنه بكرى حبيته يخذعهن ، فزدن فى ضربه شدة ، حتى قتله كما قتلن كل جريح آخر غير حليق .

ولما أحست تغلب شدة وطأة عدوها عليها لجأت إلى الحيلة القديمة عند العرب ، فأدبرت مستهزئة ، وتبعها بكر وهى تظن أن اليوم قد انتهى إلى نصر تشتق به من عدوها ، ولكنها ما كادت تبلغ وسط السهل ، حتى رأت تغلب قد وقفت فجأة عندما نادى صوت المهلهل صائحاً : « واكلياه ! »

وكانت تلك علامة ، فوقف الفرسان وارتدوا على بكر وهى فى تفككها مستهزئة إلى توهم النصرة . واهتزت بكر هزة عنيفة من الصدمة ، وأقبل عليها المهلهل كالصاعقة ، وحوله حلقة من الصناديد يضربون كأنهم يحصدون حصداً ، فتردد البكرون ملياً ، ثم تزعزعوا ثم لَوَّوا لجم الخيل وولوا الأدبار يطلبون النجاة من سيف المهلهل ومن حوله .

كانت فتيات بكر عند ذلك فى آخر السهل يسيبن سعيّاً حثيثاً ليدركن قومهن الذين أسرعوا فى آثار تغلب المهزومة . وفيما هن فى سيرهن أبصرن فرسان بكر مقبلين نحوهن منهزمين وقد تصدعت صفوفهم وتشتت شملهم ، وخبول المهلهل فى آثارهم تصيح : « واكلياه ! » . فوقفن صفّاً فى طريق الخيول المقبلة ، وخرجت بهتة نند إلى صدر الصف ، وصاحت : « إلى أين يا خفاف القلوب ؟ »

وأخذت تنشد نشيداً والفتيات ينشدن وراءها :

إن تقبلوا نعانق	ونفرش النمارق	وندهن المفارق
إن تدبروا نفارق	فراق غير وامق (١)	عرس الموكى طالق

والعسار منه لاحق

فاضطرب الفرسان أن يقفوا خوف أن يطشوا الفتيات بخيولهم ، ثم سمعوا نشيدهن ، فتارت كرامتهم وأحسوا الخجل من هزيمتهم ، ودعا بعضهم بعضاً للشبات . ووجد القواد فرصة لتثييت القلوب ، ولم الشعث ، وثنوا أعنة الخيل إلى وجه العدو اللاحق بهم وتقدموا إلى لقاء المهلهل ومن معه وكان أعنف اصطدام وأشد قتال .

أدرك الحارث بن عباد قومه المهزمين بعد لأى ، وكان لم ينهزم معهم بل وقف فى جماعة قليلة يحارب فى موضعه الأول ، وجاء الشيخ الشجاع الفند بن سهل كذلك لما رأى أن مكان الحرب قد تحول ، وجعل يحرض قومه وهو يحارب فى طليعتهم . ورأى الحارث بن عباد المهلهل وهو لا يعرفه فى وسط فرسانه لا يدنو من كتية حتى يفرقها ، ولا يقبل على جماعة حتى يشتتها ، فنظر حوله وقال صائحاً : « هذا صيد كريم » .

ثم ركض فرسه النعامة متجهاً نحو الفارس المجهول ، وما هو إلا قليل حتى كان عائداً وقد وضع الفارس المخيف أمامه على ظهر النعامة ، والبكريون يستقبلونه بصيحة فرح تملأ الفضاء . وما كادت تغلب ترى المهلهل أسيراً حتى ول فرسانه الأدبار وتعقبهم فرسان بكر يتخطفونهم بالرماح .

وركض الحارث فرسه وأسيره أمامه ، وإلى جواره الفند بن سهل حتى بلغوا مؤخرة الجيش فألقى به على الأرض ووقف يتأمله .

وكان الفارس الأسير فى عدة كاملة من سلاحه ودروعه ، لا يظهر منه إلا عينان تبرقان من وراء المغفر^(١) فلما ألقاه الحرث على الأرض وقف مطرقاً كاسفاً ، فسأله الحارث : « من أنت لا أم لك ؟ » .

فقال الفارس المقنع : « أنا أسير » .

فسأله الحارث : « ما بال رمحك طويل ؟ »

فقال الفارس : « لم يغن عنى طوله » .

فقال الحارث ساخراً : « رمح الجبان طويل » .

فعلت ضحكة ساخرة من حوله ، واهتز الفارس من وقع الإهانة ، ولكنه لم يتكلم .

ولما أحمدت أصوات الضحك قال الحارث : « لقد حسبك المهلهل ؟ »

فقال الأسير : « وأنى لك أن تصيبه » .

فقال الحارث فى غيظ : « وحق مناة لورأيت ما نجا » .

فقال الأسير : « أتريد أن تراه ؟ »

فقال الحارث مسرعاً : « من أجله سعيننا إلى هنا » .

فقال الأسير : « وماذا تفعل لو دلتك عليه ؟ »

(١) المغفر : زرد يلبسه المحارب تحت القلنسوة .

قال الحارث ساخراً : « أطلقك حراً » .

فقال الأسير متهمكاً وفي صوته اضطراب يسير : « ومن يكفل لي صدقك ؟ » .

فظهر الغضب في وجه الحارث ، ولكنه أجاب في لطفة : « سل من شئت أن يكفل لك صدق » .

فتقدم الأسير إلى الشيخ الشجاع الفند بن سهل ، وكان إلى جوار الحارث وقال : « أريد هذا ضامناً » .

فنظر الشيخ إلى الحارث متردداً ، فقال له الحارث : « اضمن له يا أبا مالك » .

فقال الشيخ : « ضمنت لك وفاءه ، فمن أنت ؟ »

فلم يجبه الأسير ، بل نظر إلى الحارث وقال له : « أتريد أن ترى المهلهل ؟ »

فقال له الحارث بحقد : « نعم . قلت لك أريد أن أراه ، لأضع هذا السيف في قلبه » .

فترع الفارس بيضته عن رأسه وقال :

« هأنذا المهلهل فاقتلني إن استطعت » .

فأسرع الشيخ الفند بن سهل ووقف دونه خشية أن يبادر الحارث إليه فيقتله وينقض عهده في ضمانه ، فبلحقه من ذلك عار الأبد .

وارتفعت هممة في الجمع الملتف حول المهلهل ، بين صيحة غضب وأنة أسف ، وآهة حقد .

ووقف الحارث بن عباد قابضاً على سيفه وهو يرتعد من الغيظ وقال : « ثكلتك أمك أيها المخادع ! »

فقال المهلهل ثابتاً : « الحرب خدعة » .

فنظر الحارث إلى الفند بن سهل وهو واقف بينه وبين أسيره وقال : « لقد هممت لولاك يا أبا مالك . . . » .

ثم سكت وذهب بعيداً وجلس على صخرة وهو نائم النفس ، وقد بدا على وجهه أثر الحقد والاضطراب . ثم أطرق يحدث نفسه ويئن من شدة الغيظ : « وإيجبراه ! هل أهدر دمه وقاتله في يدي ؟ »

والتفت الفند بن سهل إلى المهلهل وجعل يتأمل وجهه ويتفرس فيه ، ولم يملك نفسه من الإعجاب بمظهر ذلك البطل الدموي الذي لم يضع سلاحه كل تلك السنين ، ولم يطع في

ثأره المائل نصيحة ولا توسلا ، وعلت وجهه برغمه ابتسامه خفيفة ثم قال له :
« لا أبالي أن أنجو بحياتي كما نجوت يا مهلهل » .

فطعنت هذه الكلمة قلب المهلهل ، وأحسن صدق تأنيب الشيخ فقال : « ولكني أطيل حياتي لأطيل فيكم فتكى » .

فسمع الحارث هذه الكلمة ، فكأنما هو وحش رابض أغضبه . فأقبل مسرعاً وقد لمعت عيناه بالشر . فأسرع الشيخ الفند فاعترض سبيله وقال محذراً : « على رسلك يا أبا بجير لقد ضمته » .

فصاح الحارث ثائراً : « بحق مناة لا ينصرف عني هكذا » .

وكان خبر أسر المهلهل قد ذاع في الجيش وانتشر حتى بلغ النساء في الحى ، فعلمت به أم الأغرزوجة الحارث ، فأقبلت تسعى في هلع حتى وقفت إلى جوار الشيخ ثم جعلت تتوسل إليه قائلة : « بغنى أخى ، امنن علىّ به ، إن قتله لا يعيد بجيراً بل يزيد قلبي جراحاً » .

فتردد الحارث وهذا غضبه قليلا وتحرك متردداً ثم قال : « إذاً فليدلى على رجل من قومه أقتله ببجير » .

فذهبت أم الأغر إلى المهلهل ترجوه أن يفعل ما يريد زوجها حتى لا يفتك به . وصمت المهلهل لحظة وهو مطرق ، ثم رفع رأسه وقد جال على وجهه ظل ابتسامه ، ولكنها كانت ابتسامه غلّ وحقد . وأشار إلى أقصى الفضاء وكان فيه بعض فرسان من أهل الحفاظ لا يزالون يتجاولون ويتحاربون ، وقال للحارث : « أتري ذلك الفارس صاحب العمامة الحمراء ؟ » . فالتفت الحارث بلهفة إلى حيث أشار المهلهل وقال : « نعم . فمن هو ؟ وهل هو كفاء لولدى ؟ » .

فقال المهلهل : « هو امرؤ القيس بن أبان » .

فما كاد الحارث يسمع اسم الرجل حتى وثب على النعامة وقصد إليه ، وما هي إلا لحظات حتى صرعه وقتله ، وعاد راكضاً فرسه يصيح : « لا خير في تغلب بعد امرئ القيس ، لئن فاتني المهلهل بخداعه فقد اشتفيت بسيد تغلب وشيخها » .

ولم يخل وجه المهلهل من دلالة الارتياح عند ذلك ، فقد كفاه الحارث مؤونة ابن أبان وخلافه عليه ومعارضته لمشيئته في قومه .

ولما أقبل الليل كان المهلهل طليقاً يسير كاسف البال يتبع آثار قومه الذين ارتحلوا من

قصة هارين نحو الشمال . وكان كلما مرَّ بشعب من الشعاب رأى جماعة يحملون صريعاً
أوعينون على السير جريحاً ، ويسعون في آثار قومهم بعد الموقعة الطاحنة .
ولم يخل بيت في تغلب بعد يوم تحلاق اللحم من بكاء على قتيل . أو قلى ولغة على
حياة جريح . ولم يقف بهم السير في هربهم حتى بلغوا أكتاف السواد من أرض العراق ،
خوفاً من غارات بنى عمهم المتصرين .

سار المهلهل من معسكر بكر بعد أن أطلقه الحارث بن عباد وهو يجر رجليه ، وكان الليل البهيم^(١) يلف الصحراء في رداءه الأسود ، فلا يظهر منها في ضوء النجوم الخافت إلا الأفق البعيد خطاً متموجاً غامضاً وكان يخيل إليه أن ذلك الليل الأسحم^(٢) يهبط على الأرض فيثقلها ، ويهبط بها إلى أسفل في الفضاء . كان رأسه يعيد به وخياله يضطرب ، وأعضاؤه المثخنة بالجراح تنبض بالألم كأنها تنضج بالأنين . وكان قلبه أثقل على صدره من ذلك الليل يخفق في خمود وتباطؤ ، كأن ضرباته خبط ناقة عشواء ضالة في الظلام .

وجعلت صور حياته تتوارى على ذهنه سراعاً ، كما تتوارى الصور على ذهن الفريق . لقد سار بقومه حيناً إلى النصر ، وساد فيهم ما ساد حتى كاد يبلغ فيهم مكانة أخيه كليب ، ومضت عليه السنون وهو يحرز النصر بعد النصر ، ويسفك الدم بعد الدم ، ولكن ذلك كله لم يروغلتة من الانتقام ، بل كان كلما زاد من القتل والطعن اشتد ظموه إلى القتل والطعن ، حتى صار القتال قصد حياته كلها ، فأنساه المجد والسلطان ، وأغلق قلبه عن الرحمة والسلام ، ولم يبق في قلبه موضعاً لمودة أورشم . ولم تخمد ثورته لما اعتراه من ضعف ، أو ما أصابه من هزيمة ، فقد كان وهو يجر رجليه بعد خروجه من معسكر الحارث بن عباد لا يزال يتمثل صور الطعنات التي يدخرها ، والضربات التي يعتزم أن يسدها ، والدماء التي يريد أن يسفكها . كان غليله الثائر لا يزال يضطرم في قلبه المكدود ، لم يزد الخذلان إلا عنفاً ، ولم تزد الهزائم إلا قسوة .

ومرت بذهنه صورة بجير بن الحارث ابن أخته المسكين ، وهو يتوسل إليه بالرحم أن يدعه فلا يسفك دمه بغير جريرة ، وتذكر صاحبه الشجاع امرأ القيس بن أبان ، وهو ينصحه ألا يمس الفتى البريء بسوء وهو ابن أخته ، وتذكر ما جرّه عليه قتل الفتى من مصائب ، بعد أن ثار أبوه الحارث ثورته . تذكر هذا كله ، ولكن قلبه كان لا يزال يشتعل بالحقد والغل ، فلم يحس ندماً ، بل علت وجهه المتعب بسمّة قاسية كأن ذكرى ذلك المنظر قد بعثت فيه نشوة وارتياحاً . ثم تذكر امرأ القيس بن أبان وهو قتييل عند قضة ، وتذكر الخيانة التي زل إليها

(١) الليل البهيم : الليل الأسود الذي لا ضوء فيه حتى الصباح .

(٢) الأسحم : الأسود .

عندما أباح لحقده أن يخدعه ويملك عليه زمام نفسه فأطاع الحقد ودل عليه الحارث بن عباد فاشترى بالخيانة حياته . تذكر ذلك كله ولكنه لم يحسن ندماً ، بل علت وجهه بسمة قاسية أخرى ، واهتزت نفسه هزة تشبه أن تكون نشوة وإرتياحاً ، فإن امرأ القيس كان يخالفه ، ويعصيه وينصحه ، وما كان أحب إلى نفسه أن يتذكر منظره وهو صريع بيد الحارث أبى بحير . وتنبه المهلهل إلى نفسه في فترة من فترات الصحوين هذه الخواطر والوساوس ؛ فعجب لقلبه كيف تبدل حتى أصبح كأنه يطيع شيطاناً مشثوماً يسوقه في سبيله . ولكنه ما كاد يحس هذا اللين يلم به حتى عادت إليه وساوسه وخواطره الدموية وغاب في سيل من ذكريات ضرباته وطعناته .

ومرت في ضميره سائحة سريعة من الأسف والخجل عندما تذكر خدعته التي خدع بها الحارث واستطاع بها أن ينجو بحياته ، وتذكر ما قاله له الشيخ الشجاع القند بن سهل ، إذ قال له : « ما أبالي أن أنجو بحياتي كما نجوت يا مهلهل ! لقد كانت سخرية مرة فيها تأنيب وفيها ازدراء ، وما كان أحرأه أن يربأ بنفسه عن تلك المذلة ، ولا يشتري الحياة بذهاب الكرامة ؛ ولكنه أغمض عينيه وهز رأسه بعنف كأنه يريد أن يبعد عن نفسه تلك الخاطرة المزعجة ، وجعل يحمل نفسه على تأمل ما يأتي به الغد القريب من وقائع جديدة يجد فيها شفاء جديداً من غليله ، وفرصة أخرى ينكل فيها بعدوه ، ويسفك سبلاً آخر من دمانه .

مضى المهلهل في صحبة هذه المواجهات المظلمة النائرة ، كأنه كان يحاول أن يخفى فيها عن نفسه ، وأنس إلى ذلك الظلام الثقيل الذي حوله ، وجعل ينتقل من موضع إلى موضع ، ويفتح صدره لنفجانات الليل الرطبة الباردة ، لعلها تطفى النيران النائرة فيه ، وجعل يتأمل النجوم ويحادثها ، تلك النجوم الأبدية التي طلعت على الأجيال جيلاً بعد جيل ، واطلعت على اضطراب الإنسان أبد الدهر الطويل ، ثم شهدت فناءه طبقة بعد طبقة ؛ وخيل إليه أنها في لأنائها تضحك ساخرة منه ، أو أنها تضحك ساخرة من ذلك النصر الذي ظل يضطرب من أجله كل تلك السنين ، فإذا به ينهار كما تنهار الرمال ، ولم يترك في قلبه إلا تلك الوخزة الأليمة التي كان يحسها كلما تذكر أخاه البطل كليلاً القتيل ؛ نعم فإن الجرح الذي أصاب فؤاده من مقتل أخيه كان لا يزال مع مر السنين جرحاً دائماً موجعاً .

أخذ السير يعرج به في شعاب الفلاة ، حتى انتهى به أخيراً إلى شعب خفي في ثنايا واد عميق ، فسمع به حساً ينبعث مثل أصوات في الحلم ، حساً خفياً مضطرباً غامضاً .

فسار في حذر إلى طرف الشعب من وراء ثَنِيَّة الوادى ، وكان الظلام في داخل الشعب أكتف حلكة من الليل ، فلم يستطع أن يتبين أحداً من الجلوس ؛ فوقف وراء صخرة خوف أن يكون هناك بعض أعدائه . وأصاخ بسمعه إلى الحديث وجعل يجهد نفسه في تمييز الأصوات وتعرف جرسها ونبراتها وخيل إليه أنه يعرفها . لقد سمع تلك الأصوات من قبل ، فهي بلا شك أصوات شبان من قومه ، كانت ترتفع في نوادى تغلب لكي تنصره وتهتف باسمه وتحيطه بضجة تشبه أن تكون من ترتيل العبادة والتعديس .

واستمع إلى الحديث ، وكانت الأصوات واضحة في سكون الليل يزيدها وضوحاً هدوء الهواء . وما كاد يقف هناك لحظات حتى كان جسمه يتفصد عرقاً . كان الجدال عنيفاً ، ولكنه لم يكن بين جانبين يتنازعان ؛ بل كان بين عصبة مجمعة على لومه والحق عليه وإن مجادلت في تقدير جرائره .

قال أحدهم : « لقد نصحه امرؤ القيس ألا يقتل بغيراً فلم يطعه بل قتل الفتى المسكين ظملاً ولم يشفق من فجعية أخته أم الأغرفيه » .

وقال آخر : « ولكن أدهى من ذلك أنه لم يستطع أن يقف للحارث بن عباد ولم يمنع نفسه منه . ألم تروه وهو يحمله أسيراً على فرسه ويعدو به وهو ملقى على ظهر جواده كأنه صبي ؟ أى عار جلب هذا الزير على قومه ! »

وقال ثالث : « ولا أشك في أنه هو الذى دل الحارث على ابن أبان ليقتله . . لقد سمعت بعض بنى بكر يتحدثون بهذا وأنا مختف في الكهف عقب الهزيمة . لقد قالوا إنه دل الحارث على ابن أبان سيد تغلب . وما أراد بخيائته إلا أن يشقى حقه من شيخنا الباسل الذى كان يجادله ولا يبتغى إلا خيركم » .

فعلت من الجمع صيحة إنكار ، وقال أحد الجلوس :

- أوسعت هذا يابن الأجدع ؟

فقال الشاب : « سمعت هذا بأذى هاتين ، وسيأتيكم مصداق قولى إذا رأيتم المهلهل غداً يسير في آثاركم . فقد منَّ عليه الحارث وأطلقه بعد أن خان له سيد تغلب ممناً لحياته . نعم لقد اشترى حياته بالعار والخسة » .

فعدت الضجة أعلى وأعنف ، واختلطت بها الأصوات ، وتطايرت في ثناياها ألفاظ الحق ، وكان اسم المهلهل يتردد فيها مع أقذع السباب . ثم مجراً أحدهم فقال : « إنه قد

سفك دماءنا في سبيل دم أخيه الطاغية ، وسرنا وراءه كهولاً وشباناً ، وها هو ذا يخوننا ويدل أعداءنا علينا لكي يتجو بحياته .

فصاح الجمع مضطرباً :

« القتل له ! القتل للمهلل ! القتل للخائن الجبان ! »

فلم يطق المهلهل البقاء ، وتنحى عن موضعه مسرعاً ، وسار وحده وهو لا يدري ماذا يرى من أمامه . كان يتعثر من الاضطراب وقلبه جاثش^(١) بالألم ورأسه مضطرب بما فيه من الهموم ، حتى إذا اقترب من خيام قومه سار وهو يترنح إلى خيمة الهجرس بن أخيه ، وناداه في احتراس من باب الخباء . فتنبه الهجرس وخرج إليه مسرعاً ، وعرفت سلمى زوجة الهجرس صوت أبيها المهلهل فخرجت إليه مثلهفة .

فلما وقع نظر المهلهل عليهما أشار إلى الهجرس ليتبعه ، وأشار إلى سلمى أن تدخل الخباء في صمت ، ثم مضى مع ابن أخيه حتى خرجا من بين الخيام وذهبا إلى جانب كتيب من الكشبان القريبة فاستترا وراءه وجعلا يتحدثان .

ولم تمض بعد ذلك الاجتماع ساعة حتى كان المهلهل والهجرس يستعدان للتزوح عن قومهما ، وقد عزم المهلهل عزمًا لا يتزعزع على أن يترك جوار قوم حدث بعضهم بعضاً بسبه وتنادوا بقتله ، وخاض جماعة منهم في عرضه وشرفه وانتقصوا منه وتأمرؤا عليه . ولم يصحبه في عزيمة الرحيل إلا طائفة ضئيلة من أهله وعبيده .

وذاعت في حلل تغلب بعد حين ذائعة من نبأ رحيل المهلهل ، فأسرع جمهور من شيوخها وكهولها إليه ليردوه عن قصده ، ويحاولوا الاعتذار عما أجرم بعضهم في التناول عليه ، فلم يجدهم ذلك ، وأصر المهلهل على المسير عنهم بأهل بيته .

وفي بكرة الصباح التالى اجتمع الناس رجالاً ونساء لينظروا إلى بطلهم النظرة الأخيرة ، ولم يملك المهلهل وهو يلقى عليهم آخر نظراته إذ ينحدر في سيره وراء الكشبان البعيدة أن يمسح دمعة غلبته ، دمعة الأسى على فراق قوم طالما شاركهم وشاركوه في مخاطر الحروب وفي نشوة النصر وفي كسرة الهزيمة .

(١) جاثش : فائض .

بعد عامين من ذلك اليوم كان المهلهل يسير وحيداً ، لا رفيق له ولا أنيس ، بعد أن قُتل ابن أخيه المجرس في غزوة من غزواته ، وبعد أن قُتل رفاقه القلائل واحداً بعد آخر في مصادماته العدة مع القبائل التي كان يمر بها . وهان أمره في القبائل حتى اضطر إلى تزويج ابنته الجميلة سلمى مرغماً صاغراً من غير أكفائها ولم يستطع في ضعفه أن يعاقب خاطبها الجريء ، بل أجابه إلى زواجها وقلبه يتحرق ، والعجز يخرس لسانه . وأخذ يضرب في الأرض بعد ذلك وحيداً إلا من عبيدين وراحتين وفرسه المحبوب « المشهر » وسيفه ودرعه التي آلى على نفسه منذ أعوام طويلة ألا يخلعها عن جسمه .

كان المهلهل بعد عامين من تلك الحياة المضطربة يسير وحيداً في صحبة عبده ، يريد النزول إلى جوار ماء من مياه هَجَر ، بعد أن جفت بقايا الأمطار في القفر الذي اتخذه موطناً . ففرى أرض يتزل بها جماعة من بكر - من بني قيس بن ثعلبة قوم الحارث بن عباد . فسمع عوف بن مالك كبير القوم بمروره وخشى أن يكون قد أقبل عليه مغيراً يطلب غرة فيستاق من الأموال والنعم ما يجد ثم يمضي سريعاً كما كان يفعل كلما مريبقيلة من بكر ، فأرسل إليه كتيبة صغيرة ترصد له ؛ حتى إذا ما اقترب منها وقفت تعترض سبيله . فأسرع العبدان إليه خائفين وقالوا وهما يرعدان من الخوف : « هذه جماعة من بكر ! » فنظر إليهما المهلهل كاسفاً وقال كأنه يخاطب نفسه : « أين منى الأحرار ؟ » ثم صاح بهما وقد أشرع رمحه : « تنحيا عني لا أبال كما ! »

ومضى في سبيله والعبدان يسيران خلفه في بطء ، وقد انخلع قلباهما . حتى إذا ما صار عند القوم أراد أن يمترق صفهم لا يلتفت إلى يمين ولا إلى يسار ، وغمز فرسه المشهر في جنبه فاندفع مسرعاً حتى خالط الصف ، وأوشك أن يتغذ من بينهم . فثار البكريون لهذه الجرأة واختلطوا سيوفهم واندفعوا إليه فأحاطوا به من كل جانب ، ولكنهم لم يمسوه . فقد كان أمر عوف بن مالك أن يعودوا به أسيراً .

ومضى المهلهل في سبيله ورفع الرمح فأهوى به على أقرب فارس منه فطعنه في صدره فألقاه صريعاً . واضطربت الجماعة لحظة ، تمكن المهلهل في خلاها من أن يخرج من دائرتها ،

وأُسرَّع الرمح مرة أخرى وأهوى به على فارس آخر يقصد قلبه ، فتلقى الفارس طعنته في مجنه (١) ، وأسرع الفرسان فالتفوا حوله مرة أخرى . وضرب أحدهم رمح المهلهل بسيفه فقصمه وصاح قائلاً : « أسلم نفسك قبل أن نزيل هذا الرأس الأحمر عن جسدك » .

فتكبر المهلهل أن يرد على الرجل ، وأسرع كالبرق فاستل السيف وأهوى به على رأس مخاطبه فأرداه عن فرسه .

فاستشاط الفرسان غضباً واندفعوا نحوه من كل جانب يضربونه بسيوفهم وهو يراوغهم ويتقى ضرباتهم ما استطاع ، يتلقاها على سيفه تارة وعلى مجنه أو درعه تارة أخرى ، حتى ظن القوم أنه قد أعجزهم ، وعزموا على القتل به فنصايحوا : « لا تبقوا على الوغد ! »

ولكن المهلهل قاوم ودافع ، حتى كاد يأتى على آخرهم لولا جراح أصابته نزفت منها دماؤه فأضعفته عن المقاومة ، ومال عن سرجه خائر القوى ، ولا يزال السيف في يده يقطر من دماء بنى بكر .

فوجد بقية الفرسان عند ذلك فرصة أمكنهم منه ، فأحاطوا به واستطاعوا أن يحملوه إلى عوف بن مالك وهو بين الحياة والموت .

قضى المهلهل في أسر عوف أشهراً يرسف في قيوده ، ولا يجد سلة إلا في التغي برثاء أخيه ، أوند كروقاته في بنى بكر .

ولم يكن أحد يجرؤ أن يدنو من خيمته إلا امرأة الشيخ عوف بن مالك وهى من بنات خولته اسمها « جيبة بنت المجلل » . وكانت امرأة شابة جميلة حلوة العينين عذبة الحديث ، عطف على المهلهل أشد العطف في محنته ، أكثر مما كانت تكبر بطولته في حروبه . فكانت تحمل إليه كل يوم طعامه وشرابه وتحادثه وتزورح عنه وكان المهلهل يأنس إليها حيناً ويعرض عنها حيناً ، ويقبل منها طعامها يوماً ويرفضه أياماً ، وهى مع كل ذلك على العناية به والترفق في أمره .

وجاءه يوماً رجل من أتباع عوف فدخل عليه خبائه وهو باسم كأنه قد جاءه يبشرى ، وقرب منه فجعل يحل وثاقه ، وهو مطمئن إلى شكره وعرفانه . ولكنه ما كاد ينتهى من إطلاق يمينه من قيدها حتى بادره الأسير العنيف بضربة على أم رأسه كاد الرجل يخر منها صريعاً . فارتد مسرعاً وهو يتطوح ، حتى إذا ما صار على باب الخيمة صاح به حانقاً : « ما الذى حملك

(١) المجن : ما يتقى به ضربات السلاح .

على هذا ؟ وأى جزاء تجازينى على فك قيدك ؟ »

فرد المهلهل بصره عنه متكبراً ولم يجب .

فذهب الرجل عنه مسرعاً فى غيظ شديد ، وبقى المهلهل صامتاً ينظر إلى أثر حز الحبال المتينة فى معصميه ، وفيما هو يتغنى حزيناً يخاطب ذلك الأثر ، أقبلت عليه جيبة بنته المجلل ، وهى تنظر نحوه نظرات موزعة بين الإنكار والترفق .

فلما صارت قريبة منه قالت فى رفق : « لم ضربت الرجل وقد أتى بفك وثاقلك ؟ »

فنظر إليها المهلهل وألان من نظراته ثم قال : « وما الذى حمله على فك ذلك الوثاق ولم يستأذنى قبل فكه ؟ لئن كنت أسيراً فأنتى لا أزال أملك هذا القيد من أمرى » .

ثم جعل ينظر إلى معصميه ويحدث نفسه وينشد من شعره فى بكاء كليب . .

فقالت جيبة فى نغمة اعتذار : « لقد بعته إليك ابن عمك عوف بن مالك وأمره أن يفك قيدك ، وما كان يحسب أن ذلك يسوؤك ، وما يقصد من ذلك إلا التودد إليك ، لعلك تأنس إليه . وقد جاءه اليوم قوم من بنى عمك فأحبوا أن يأتنسوا بك » .

ففتحهم وجه المهلهل وعقد ما بين عينيه وقال وقد لمع الشر فى نظراته : « وهل كنت لآبن عوف نديماً ؟ »

فقالت المرأة ولا تزال فى نغمتها رنة الاعتذار : « لا ! ولكنهم يدعونك للمؤانسة . وهل عليك ضير فى محالسة قوم من بنى عمك ؟ »

فأدار المهلهل وجهه عنها وقال مغمغماً : « ليس المهلهل بمن يسعى إلى أحد » . ثم جلس فى ركن الخيمة ، وجعل يتغنى حزيناً بمراثيه فى أخيه .

فأتت المرأة أن مراجعة القول لئن تجديها شيئاً ، فانصرفت فى صمت وبقى المهلهل يتغنى ناظراً إلى أثر القيود فى يديه .

بعد قليل أقبل ابن عوف ومعه ضيوفه ، حتى وقفوا على باب الخيمة . وتقدم شيخ كبير منهم فقال باسم : « أتأذن لى يابن الكرام ؟ »

فنظر المهلهل نحوه حيناً وهو لا يميزه ، وغاب لحظة فى تفكيره ثم علت وجهه ابتسامة ضعيفة مترددة ، وقال بصوت خافت : « القند بن سهل ؟ »

فقرب الرجل منه وقال وهو واقف إلى جانبه : « نعم القند بن سهل . أبيت أن تسمى إلينا فسعيناً إليك » .



فاعتدل المهلهل مرتاحاً إلى حديث الرجل ، ونادى القند يخاطب إخوانه الواقفين دون باب الخيمة فقال :

« لا بأس عليكم يا قوم ، فقد أذن لنا المهلهل » .

فدخل القوم وجلسوا في جوانب الخيمة ، ودخل معهم عوف بن مالك ، فانتحى جانباً وهو صامت .

وتبسط المهلهل في حديثه مع القند ، ثم امتد الحديث إلى سائر الجلوس ، وكأن المهلهل قد نسى ما هو فيه من أسروصيق وذل ؛ فجعل يحدث القوم ويرحب بهم ويؤانسهم بالتحية كأنهم ضيوفه ، وكأنهم قد نزلوا عليه في بعض رحابه .

وبعد ساعة جاءت جفان^(١) اللحم والثريد ، ووضعت السنام مشوية مع الكبد في صفحة جعلت بين يدي المهلهل ، وحملت الخمر فأديرته على الحاضرين في كؤوس من نحاس ، وأقبل الجميع على السر في خيمة المهلهل كأنهم في وليمة حافلة .
هكذا أراد الضيوف ، ولم يستطع عوف بن مالك أن يرضى بمطلب طلبه منه زائروه .

وأراد المهلهل أن يمتنع عن مشاركة القوم في شرايهم براً بقسمه الذي أقسمه عند قتل أخيه . ولكن شيئاً غلبه على امتناعه فجعله يرضى بمقاسمة القوم شرايهم أكان ذلك ليأسه من متابعة النضال أم كان لاقتناعه بأنه أدرك ثأر كليب ؟ أم كان لأنه لم يقدر على مقاومة إغراء رائحة الزقاق التي حرم مذاق راووقها الصافي تلك السنين العدة بعد أن كان لا يصبر عنها يوماً مهما يكن من ذلك فقد أقبل على الشرب وانحلت منه عقدة الهم ، وعاد اللون إلى وجهه ، وانبسط أساريه ، وكسته ابتسامة ودیعة وضرب مع الجلوس في الحديث .

وتحدر السم وتصدع في شعاب وشجون ، وكان القوم يصفون في شوق إلى أقوال المهلهل ويستملحون قصصه ويستعذبون أشعاره ، ثم دارت الخمر في رأسه فتدقق في إنشاده وانساب في حديثه حتى صار هو وحده متكلم القوم . ولكنه لم يلبث أن نسي موضعه وحاله . وجعل يتذكر مواقفه في بكر ، وينشد من أشعاره مفاخرأ بقومه ، متغنيا بمن قتل من سادات بكر وشيوخ قيس بن ثعلبة .

ثم قام في حماسة كأنما قد خيل إليه أنه واقف في صفوف تغلب يذمرهم للحرب ويحرضهم

(١) الجفان : جمع جفنة وهي القصعة .

على الاستبسال في الهجوم ، وأخذ يشير بيديه ناظراً إلى الفضاء الفسيح الذي دون الخيمة وجعل ينشد :

شفيت النفس من أبناء بكر وحكت برّكها بيني عباد
إذا ما الخيل بالأشكال جالت وفي لباتها الأسل الصواد
وثار النقع بينهم وثار لها أسد على أسد عواد
بضرب تشخص الأبصار منه وطعن مثل أفواه الميزاد
فنظر إليه الجلوس ووجموا ، ثم نظروا إلى عوف بن مالك فإذا به مربد الوجه ، محمر العينين ، وإذا به يقبض على سيفه وينفث من غيظه كما تنفث الحبة .
وأراد أحد الضيوف أن يخفف من وقع الأمر ، فقال للمهلل في لهجة المداعبة : « ألا تقول لنا شيئاً من غزلك يا مهلهل ؟ »
فصلى المهلهل كأنه لم يسمع قول الرجل ، وتحولت رنة صوته حتى صارت كأنها صيحة حرب وقال :

رب خيل لقيتها لا أبالي حيث ألقى كماتها مغوارا
إننا معشر إذا ما غضبنا ضاقت الأرض نقتنى الآثارا
إن أقمنا أقامت الناس طوعاً أو أردنا الحروب سرنا جهارا
وعند ذلك لم يطق عوف بن مالك صبراً ، فنهض فجأة وصرخ قائلاً : « أيفخر العبد علينا في ديارنا ؟ » .

ثم خرج وهو يضطرب من الغيظ ، وقد وضع يده على مقبض سيفه وصار يخطو خطواً سريعاً حتى بلغ خيمته . وصار القوم جميعاً في أثره وتركوا المهلهل قائماً وحده ينشد ويتغنى ، ويفخر بما أنزل بالبكرين من ويلات .

حاول الضيوف أن يعتذروا إلى عوف مما سببه له من الإهانة ، وأرادوا أن يخففوا عنه وقع أشعار المهلهل . ولكنه لم يسكن ، بل استمر على اضطرابه وصخبه في فناء خيمته وهو يسير ذهاباً ورجعة في هياج .

ثم وقف فجأة وقال : « لقد كان أولى لنا لو تركناه في قيوده ، ولكن هذه الرقة التي حملتكم على مجالسته قد حرضته علينا . وهاتم أولاء سمعتموه يتغنى بسبب قومي . وحق مناة يمتون أشنع ميتة ماتها رجل ! لا يذوق طعاماً ولا شرباً حتى يرد زبيب ! »

وكان زيب فحلاً قوياً من الإبل لا يرد الماء إلا كل عشرة أيام .

في الليلة الثانية بعد ذلك اليوم كانت جيبة بنت المجمل تسير في الظلام خلصة وهي خائفة .
والهة ، حتى بلغت المهلهل ، فنظرت حولها خشية أن يراها أحد ، فلما لم تجد أحداً دخلت
مسرعة حتى جاءت إلى الأسير وجعلت تفك قيوده وتقطعها بسكين أخرجتها من طيات ثيابها .

ونظر إليها المهلهل متعجباً أول الأمر ، ثم سألها في دهشة : « ماذا تفعلين يا أم عمرو ؟ »
فقالت المرأة هامسة : « قم ! أسرع ! أسرع قبل أن تهلك » .

فلم يتحول المهلهل من موضعه بل سألها : « ماذا تقصدين ؟ »
قالت جيبة : « قم ! إنك لن تذوق طعاماً ولا شرباً حتى يرد زيب . إنك هالك لا محالة ؟
هكذا حلف عوف بن مالك » .

ولكن المهلهل بقى في موضعه لم يتحرك . فعجبت المرأة وقبضت على ذراعه وحاولت أن
ترفعه وتدفعه وهي تهمس في هلع : « قم ! »

فجذب المهلهل نفسه بعنف وقال : « اذهبي عني . لن أشتري حياتي بالذلة مرتين ،
أأهرب حتى أجعلك فداء وأتستر من ورائك لكي تلاقى أنت غضب زوجك الحائق ؟ »

فوقفت المرأة متعجبة حيناً ، وأرادت أن تعاود الكرة عليه في الإلحاح ، فنظر المهلهل
إليها واجماً وقال : « قلت لك اذهبي عني ، اذهبي قبل أن أصبح في الحى مندرأ بمكانك » .

فلم تجد جيبة بداً من الذهاب وخشيت اقتضاح أمرها ، فأسمرت راجعة إلى خيمتها
وهي ترجح بين الغضب والخيبة . ولم يسمح عوف بن مالك لأحد أن يذهب إلى خيمة
المهلهل بطعام أو شراب إلا بعد أن ورد زيب ، بعد عشرة ليال . ثم ذهب إليه ليراه فإذا به
قد هلك من الجوع والعطش . ولم يملك نفسه عندما وقعت عينه عليه من أن ينجس ويحزن
كما ينجس الصائد وهو يرى الأسد صريعاً .

ووقف ينظر إلى عبديه وهما يتزعان عنه دروعه لأول مرة بعد أن بقيت على جسده
سنتين طويلة ، وكانا كلما نزعا منها قطعة صحبتها رقعة من جلده الذي لصق بها . ولكنه عندما
نظر إلى يديه ورجليه لم يجد فيهما قيداً ولا وثاقاً فصاح بالعبدین قائلاً : « من نزع القيد
والوثاق عنه ؟ لقد أردت أن أدفنه في قيوده » .

فنظر العبدان إليه حائرين ولم يجيبا .

فرفع يده بالسيف إليهما مهدداً وكاد يهوى به عليهما ، فدخلت امرأته عند ذلك مسرعة ،

وهي تصرخ : « لا تفعل يا أبا عمرو ! لا تفعل ! »

فنظر الرجل إليها متعجباً وقال في غضب : « خلى سبيل ! مالك والعبدین ! »
فقال المرأة في هلع وهي مندفعة اندفاع اليأس : « لقد فككتها أنا ! أنا التي فككت
قيوده ! »

فصاح بها الرجل المخيف قائلاً : « أنت ؟ أيتها الخائنة ! »
فتعلقت به المرأة باكية وقالت : « أليس ابن عمتي ؟ رأيته يموت فلم يطاوعني قلبي أن
أرى بطل تغلب يتلوى يصارع الموت جوعاً وعطشاً ، فحلت قيوده وتضرعت إليه أن يهرب .
ثم سكنت لحظة وأجهشت بالبكاء وقالت في نشيجها : « ولكنه أبى وآثر الموت » .
فسكن غضب عوف قليلاً ثم قال في دهشة : « لم يرض أن يهرب ؟ »
فقال المرأة باكية : « لقد أبى ، وقال لا أشتري الحياة بالذلة مرتين »
فوقف عوف صامتاً لحظة ، ثم وضع سيفه في قرابه ، ونظر إلى المهلهل نظرة طويلة ،
وجعل يتأمل جسمه الضعيف النحيل ، وجلده المقطع ودرعه التي علاها الصدا . ثم تنفس
نفساً عميقاً ، وقال في حزن : « أبى المهلهل إلا أن يموت كريماً ! مات سيد ربيعة » .
ثم أشار إلى العبدین أن يترفقا بالجسد المحطم الذى يجهزانه ، وذهب إلى قومه لينعى إليهم
المهلهل ، ويستعد لإقامة المأتم لعدوه البطل . ولم يرض عليه بدمعة حسرة وهو منصرف من باب
خيمته الساكنة .



رقم الإيداع	١٩٧٨/٤١٣٧
الترقيم الدولي	ISBN ٩٧٧-٢٤٧-٣٨٠-١

٧٨/٤٢ م

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)